أحلى قصائد الصوفية



مجدي كامل

دار الكتاب العربي



أحلى قصائد الصوفية

دارالكتاب العربى
سوريه ـ دمشق ـ الحجاز
ش مسلم البارودى ـ مدخل فندق الشموع ط ـ ١
هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ ـ ٢٢٢٣٨١١
ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة ـ شقة ١١
هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨
رقم الإيداع : ٢٧٠٦/ ٩٧
الترقيم الدولى : 3- 22 - 5346 - 977
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

مجدى كامل





الإهداء

إلى روح التصوف الكامنة
داخل كل منا.

مجدى

تقديم

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الالهي شعرا، كما لوكانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجرالتصوف، وحتي اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالبا للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلي الله تعالي.

وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معني التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معني كلمة «التصوف» يطالعنا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بأخر مسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهذيب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعنـي هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم علـي اخلاص العبـادة لله، بلا تصنع ولاتكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلـك يقتضي أن يكون الانسـان مسلما حـقا، وأن يكون مؤمنا صـدقا، ويحـسن الجمع بين اسلامـه وايمانه، ويزينهمـا باحسانه واتقـانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبـة للنفس، وقبل أن يصير الحساب إلي غيرها، كمـا قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحـاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهيأوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفيـة تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصـوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التـواضع وهو واحـد من أهم الاخلاق الصـوفـية التي يتـحلي بهـا المبتـدىء، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رمـوز صوفيـة كالخـمر مـثلاً ويقـصد بهـا انوار الله والسكر ويقصـد به سكر الارواح. وهناك ما يعـرف عند الصوفـية بتجـلي الاسماء الالهـية، وهي حالـة من الترقي الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولاتمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أوكثير، فالتـصوف الصحيح أساسه التقيـد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامـه، وكل من خرج علي حكم الله وأمـره، فدعـواه أنه متـصوف دعـوي باطلة، لايقرها شرع ولاعقل.

والتصـوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولابلبس المرقـعات أو تعليق المسـابح، بل هو أن يعمـر الإنسان صدره بـالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فـيه، والله جل جـلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن يتق الله يجعل له مـخرجا ويرزقه من حيث لايحـتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا».

وهناك كثير من ادعيـاء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصـوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيـبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصـوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكـان تمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذى يقـول في سورة الجمـعة، «فإذا

قضـيت الصلاة فـانتشـروا في الأرض، وابتغـوا من فضل الله وأذكـروا الله كثيـرا لعلكم تفلحون».

ويظهـر أن الذين حملوا علي التـصوف وأهله تلك الحـملة القـاسية الـشعواء، كـانوا متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في ايمانهم واحسـانهم، ولم يتقنوا العـمل الجامع بين خيـري الدنيا والآخـرة. مع أن الأثر الاسلامي الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وعلي الرغم من أن البـعض يرجع بأصـول التـصوف إلي أيام الصـحـابة، بل إلي أيام النبوة، الا أن الأكثر شيـوعا بين الباحثين هوأن البداية الحقيقية للتـصوف كنمط متفرد من التقـرب إلي الله كان ابان القرنين الثـاني والثالث الهجـريين. وهـما القرنان اللذان شـهدا ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعا.

والحب الصوفـي هو أكثر مـا يميز به شـعر الصوفـيين، ويجعل من أشـعارهم قـصائد نورانية تخلب اللب، وتستحوذ علي الفؤاد.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، ومايجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقـامات وأحوال، ومـجاهدة مـستمـرة للنفس، وما يتـعرض له من فيـض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شـعر الصـوفيين يتـجسـد هذا الحب الصوفي الالهي الغـامر الذي نراه ينقـسم شقين: شق يتعـلق بحب الله تعالي للعبد.. واخـر يتعلق بحب العبد لله، وكـلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهـر شعراء الصوفية، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعـرياً رائعًا وتراثًا انسانيًا خالداً آملين من المولي عزوجل ان يحظي برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

شغلت قلبي..

أحنُ بأطرافِ النهارِ صبابةً

وباللليلِ يدعوني الهوى فأجيبُ

وأيامنا تفني وشوقي زائدٌ

كأن زمانَ الشوقِ ليسَ يغيبُ

« سمنون المحب »

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨ هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لإنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلي الله، ووصل فيها إلي منتهي المنتهي.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بانه «أحس كلام، وشعره لايدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والصبابة».

يروي «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلي قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببيتين من الشعر أنشدهما سمنون علي النحو التالي:

وليس لي سواك حظٌ فكيفما شئتَ فامتحنّي

ان كان يرجو سواكَ قلبي لانلتُ سُؤْلي ولا التمنّي

ويقال انه لم يكد سمنون ينشد بيتيه هذين، حتي ابتلي باحتباس البول وذاك هو الامتحان، وأخذ يتلوي من الألم، ويدور في الكتاتيب، يرجوا الصبية أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلا: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجعه عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتأدب بآداب العبودية. وعندما أطلق بوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفرد سمنون المحب دون غيره من شعراء الصوفية بأن معظم أشعاره عبارة عن ترانيم عشق قصار، فلا يوجد في شعره قصيدة مطولة، بل مقطوعات متفرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وسنقدم هنا بعض المقطوعات الشعرية المتفرقة التي تعبر عن الارتباط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقا للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حنين قلوب العارفين إلي الذكر وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ

ولاعيش إلاّ مع رجال قلوبهم تحنُّ إلي التقْوي وترتاحُ للذكرِ

أُديرت كؤوس للمنايا عليهمو فأغفوا عن الدنيا كاغفاءِ ذي السُّكرِ

همومهمو جوالةٌ بمعسكر به أهل ودِّ الله كالأنجم الزهرِ

فأجسادهم في الأرض قتْلي بحبه وأرواحهم في الحُجْبِ نحو العلا

فما عرسوا إلاّ بقرب حبيبهم وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرٍّ

سكُونُ إلي روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلي الحِجْرِ

بكيتُ ودمع العين للنفس راحةٌ ولكنّ دمعَ الشوقِ يُنكي به القلبُ

وذكري لما ألقاه ليس بنافعي ولكنه شيء يهيجُ به الكربُ

فلو قـيل مـا أنت؟ لقـلتُ مـعـذَّبٌ   بنار مـواجـيـد يُضرِّمـهـا العـتبُ
بلـيتُ بمَنْ لا أسـتطيع عـتـابه   ويعـتُـبني حـتي يُقـال لي الـذنبُ

* * *

أفـديكَ بل قَل أن يـفـديكَ ذو دنف   هل في المـذلّة للمـشـتـاق من عـارِ
بي منك شـوقٌ لو أنَّ الـصـخـر يحـمله   تفطَّر الـصـخـر عن مُـسَـتـوقَـد النارِ
قد دبَّ حـبُّك في الأعضاء من جسدِي   دبيب لـفظَي من رُوحـي وإضْـمـاري
ولاتنـفـستُ الا كنـت مع نـفـسـي   وكل جـارحـة مـن خـاطري جـاري

* * *

ضَـاعـفْ عليَّ بـجـهـدك البـلوي   وابلـغْ بجـهـدك غـاية الشـكوي
واجْـهَـدْ وبالـغْ في مـهـاجـرتي   واجـهـرْ بهـا في الـسـرِّ والنجـوي
فـاذا بـلغـتَ الجـهـدَ فيَّ فَـلَمْ   تتـركْ لنـفـسك غـايةٌ قـصـوي
فـانظـرْ فـهل حـالٌ بيَ انتـقلت   عـمـا تُحب بحـالـة أخـري

* * *

وكـان قـلبي خـاليًـا قـبل حـبكم   وكـان بذكـر الخـلق يلـهـو ويمزَحُ
فلـمـا دعـا قلـبي هـواك أجـابه   فـلستُ أراه عـن فـنـانك يـبـرحُ
رُمـيت ببـين منك ان كـنتُ كـاذبًا   إذا كنتُ فـي الدنيـا بغـيـرك أفـرحُ
وان كـان شيءٌ في البـلاد بأسـرها   إذا غـبـت عن عـيـني بعـيني يلـمحُ
فـإن شـئتَ واصلني وان شـئت لاتصلْ   فلستُ أري قلـبي لغـيـرك يصـلحُ

* * *

تجـرَّعتُ من حـالَيْـه نُعْـمي وأبْؤُسـا   زمـانٌ إذا أمـضي عَـزَالَيْـه أُحْـتُـسي
فكم غـمـرة قـد جـَّرعني كـؤوسـهـا   فـجَّرعْـتُـها من بـحر صبـري أكـؤُسـا

تدرَّعتُ صبري والتحفتُ صروفه وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي
خطوبٌ لو أن الشُّمَّ زاحمنَّ خطبها لساختْ ولم تدركْ لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدِّك عنِّي ليس الا لأن ذاكَ هواكا
فامتحنْ بالجفا صبري علي الودِّ ودعني معلَّقًا بِرجَاكَا

* * *

شغلتَ قلبي عن الدُّنيا ولذَّتها فأنتَ والقلبُ شيءٌ غير مفترقِ
وما تطابقتِ الأحداقُ من سِنَةٍ الا وجدتُك بين الجفن والحدقِ

* * *

ولو قيل طأْ في النار أعلمُ أنَّه رضيٌ لكَ أو مُدْنٍ لنا من وصالكا
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطئتُها سروراً لأنّي قد خطرتُ ببالكا

* * *

أحنُّ بأطراف النهارِ صبابةً وبالليل يدعوني الهوي فأجيبُ
وأيامُنا تُفنَي وشوقيَ زائدٌ كأنَّ زمان الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ
جري فيَّ الهوي مُذْ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أمسي بخدِّيَ للدموع رسومُ	أسفاً عليك وفي الفؤاد كلومُ
والصبر يحسُنُ في المواطن كلها	إلاَّ عليكَ فإنَّه مذمومُ

* * *

أنت الحبيب الذي لاشك في خَلَدٍ	منه، فإنْ فقدتك النفسُ لم تعشِ
يامعطشي بوصالٍ أنتَ واهبُهُ	هل فيك لي راحةٌ إن صِحْتُ، واعطشي

* * *

كان لي قلبٌ أعيش بِهِ	ضاع منِّي في تقلُّبِهِ
رب فاردده عليَّ فقد	ضاق صدري في تطلُّبِهِ
وأغث مادامَ بي رمقٌ	ياغَيَاتَ المستغيث بِهِ

* * *

ياواحد الحسن..

أحلي الهوي أن يطولَ الوجدُ والسقمُ

وأصدق الحب ماحلتْ به التهمُ

ليتَ الليالي أحلامًا تعودُ لنا

فربما قد شفي داءَ الهوي الحلمُ

« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان"، وكان ميلاده بها سنة ٦١٠هـ ويرجع أصله إلي احدي عوائل الكوفة، وتنقل كثيرا في البلاد، حتي وصل مصر، وأقام فيها، وأنجب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني ـ كما كان ينادي ـ من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود،إلي الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية» الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتي هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتي انه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلي جمال وجودة قالبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

ياغائبين ووجدي حاضر بهم ... وعاتبين وذنبي في الغرام هم

بنتم فلا طرف الا وهو مضطرب ... شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ماكان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الحلوة:

أبدًا بذكرك تنقضي أوقاتي ... مابين سمّاري وفي خلواتي

ياواحدَ الحسنِ البديعِ لذاته ... أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتي

وبحبك اشتغلت حواسي مثلما ... بجمالِكَ امتلأتْ جميعُ جهاتِي

* * *

حسبي من اللذات فيكَ صبابةٌ — عندي اشتغلت بها عن اللذاتِ
ورضاي أني فاعلٌ برضاكَ ما — تختار من محوي ومن إثباتِي

* * *

يا حاضراً غابت له عاشقه — عن كل ماض في الزمان وآتِ
حاسبت نفسي فلم أر واحداً — منها خلا وقتًا من الأوقاتِ

* * *

ويقول عفيف:

مَنَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالأَسْمَاء — أنْ تُرَي دُونَ بُرْقُعٍ أَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَا — وَهَدَتْنَا بِهَا لَهَا الأَضْوَاءُ
كَيْفَ بِتْنَا مِنَ الظَّمَا نَتَشَاكَي — يَالِقَوْمِي وَفِي الرِّحَالِ المَاءُ
كَمْ بَكَيْنَا حُزْنًا بِمَنْ لَوْ عَرَفْنَا — كَانَ مِنْ شِدَّةِ السُّرُورِ البُكَاءُ
نحْنُ قَوْمٌ مِتْنَا وَذَلِكَ شَرطٌ — فِي هَوَاهَا فَلْيَيْئَسِ الأَحْيَاءُ
وأَقَامَتْ نُفُوسَنَا فِي حِمَاهَا — لاَ بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْفُو الصَّفَاءُ
فَالمُلَبِّي إذَا دَعَتْ هِي مِنَّا — ومُحِبُّونَهَا بِهَا الأَصْدَاءُ
يَا أَبَا الخَيْرِ قُمْ لَكَ الخَيْرُ فَاطْرِبْ — مَسْمَعَ الفَقْرِ مِنْكَ ذَاكَ الغِنَاءُ
لاَتَفُتْ كَاسَكَ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا — هِي فِيهَا تَنَافَسَ النُّدَمَاءُ
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدَتْكَ كَأْسُكَ لَكِنْ — رُبَّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
إنَّمَا يَشْرَبُ التِي تَسْلُبُ العَقْلَ — نَدَامَي هُمُ لَهَا أَكْفَاءُ
أَسْكَرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكَرَتْهُمْ — فِي ابْتِدَاهُمْ بِهَا فَتَمَّ الوَفَاءُ

فَجَزَاءُ مِنْهَا وَمِنْهُمْ وِفَاقٌ … وَوِفَاقٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ

قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِوَاهَا … فَالْمُسَمَّي أُولئكَ الأَسْمَاءُ

ويقول:

أَيُنْكِرُ الوَجْدُ أَنِّي فِي الهَوىَ شَحِبُ … وَدُونَ كُلِّ دُخَان سَاطِع لَهَبُ

وَمَاسَلَوتُ كَمَا ظَنَّ الوشَاةُ وَلاَ … أَسْلُو كَمَا يَترَجَّى العَاذِلُ التعبُ

فَإِنْ بَكَي لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوىً … فَلِي بِمَا مِنْهُ يَبْكِي عَاذِلِي طَرَب

نَاشَدْتُكَ الله يَارُوحِي اذْهُبَي كَلَفًا … بِحُبِّ قَومٍ عَنِ الجَرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا

لاَتَسْأَلِيهِمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ … فَطَالَمَا قَدْ وَفَا بِالذِّمَّةِ العَرَبُ

هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمُ … وَإِنَّمَا وُدُّهُمْ لِي فَهْوَ لاَيَجِبُ

هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمُ … أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهْوَ يَنْسَحِبُ

وَصَيَّرَتْ أَدْمُعِي حُمْرًا خُدُودُهُمُ … فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَامَنُّوا وَمَا وَهَبُوا

هَلِ السَّلاَمَةُ إِلاَّ أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ … وَجْدًا وَإِلاَّ فَبُقْيَايَ هُوَ العَطَبُ

إِنْ يَسْلُبُوا البَعْضَ مِنِّي فالجَمِيعُ لَهُمْ … وَإِنَّ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا

لَوْ تَعْلَمُ العَذَبَاتُ المَايِسَاتُ بِمَنْ … قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذَنْ مَا اخْضَرَّتِ العَذَبُ

وَلَو دَرَى مَنْهَلُ الوَادِى الذَّى وَرَدُوا … مَنْ وَارِدُوا مَائِه لاَهْتَزَّهُ الطَّرَبُ

إِنِّي لأَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا … كَيْلاَ يحرِّقَهُمْ مِنْ زفرتي اللَّهَبُ

وَتُرْسِلُ الدَّمْعَ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ … كَيْلاَ تُسَابِقَهَا فِي سَحِّهَا السُّحُبُ

كَذَا لِكُلِّ مُحِبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمُ … وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ

أُسَائِلُ البَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ … سُؤَالَ مَنْ لَيْسَ يَدْرِي فِيهِ مَا السَّبَبُ

وَتِلْكَ آثَارُ لِينٍ مِنْ قُدُودِهِمُ … مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا القُضُبُ

وارحمتا للعاشقين..

ياصاح ليس على المحب ملامة
ان لاح في أفق الصباح صباح
لاذنب للعشاق ان غلب الهوى
كتمانهم، فنما الغرامُ، فباحوا

« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهر وردي عادة بـ"الصوفي القتيل"، نسبة إلي مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج علي السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه، نظرا لما يجمعهم به من صداقة، دون جدوي، حيث أصر خصوم السهر وردي علي تنفيذ أمر القتل، وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهر وردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فعجلوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهر وردي التي لم تتجاوز الأربعين الا أنه ترك للمكتبة العربية والصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغريبة»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقي كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهر وردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي امتداد للسلسلة التي بدأها الحلاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهر وردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهر وردي الذي ولد بـ«سهر ورد» من أعمال «زنجان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعذوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لايضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معًا احدي نورانيات السهر وردي، وهي بعنوان «وارحمتا للعاشقين»:

أبــدًا تحــن الــيــكــم الأرواح ووصــالكم ريْحــانُهــا والرَّاحُ

وقلوبُ أهلِ ودادكم تشــتــاقكمُ وإلي بـهــاء جــمــالكم تـرتاحُ

وارحــمتــا للعــاشــقين تحــمَّلوا ثقل المحــبــة والهــوي فــضَّــاحُ

* * *

أهل الهـوي قسـمـان: قسـم منهمـو كـتــمـوا، وقـسـمٌ بالمحـبـة بـاحـوا

فـالبـاحثـونَ بِسـرهم شـربوا الهـوي صِـرفًـا فـهزهـموا الـغرام فـبـاحـوا

والكتـمـون لسـرهم شـربوا الهـوي ممزوجـةً فــحَـمـتْـهــمـو الأقـداحُ

* * *

بالســر إن بـاحــوا تبـاحُ دمــاؤهـم وكـــذا دمـــاء البــائحين تُبـــاحُ

وإذا هـمـو كـتـموا تحـدَّث عنهـمـو عنـد الوشـــاة المـدمعُ السَّـــفــاحُ

وبدت شـواهدُ للسَّـقـام عليـهـمـو فــيــهـــا لمشكل أمــرهـم إيضــاحُ

خُـفض الجَناحُ لكم، وليس عليكمـو للـصبِّ في خــفْضِ الجناح جُـناحُ

فــإلي لقــاكـم نفــســهُ مـرتاحــةٌ وإلي رضـــاكم طرفُــهُ طـمـــاح

عودو النُور الوصل من غسق الدجي فـالـهـجـر ليـل والوصـال صــبـاح

* * *

صـافـاهمـو فـصـفـوا له، فـقلوبهم في نـورها المشـكاة والمـصــبـــاح

وتمتــعــوا فـالوقــت طاب بقــربكم راق الشـــراب وراق الأقـــداح

ياصـح ليس علـي المحب مـلامــة إن لاح في أفق الـصـبــاح صــبـاح

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي ... كتمانهم، فنما الغرام، فباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها ... لما دروا أن السماح رباح

ودعاهمو داعي افحقائق دعوة ... فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفا، ودموعهم ... بحر، وشدة شوقهم ملاح

والله ماطلبوا الوقوف ببابه ... حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح

لايطربون لغير ذكر حبيبهم ... أبدا، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم ... فتهتكوا لما رأوه وصاحوا

أفناهمو عنهم كشفت لهم ... حجب البقا فتلاشت الأرواح

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ... ان التشبه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح ... وجميع أيام الملاح ملاح

قل للمحب إذا تهتك في الهوي ... ان التهتك في الغرام مباح

واخلع عذارك لاتبال بعاذل ... واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم ... باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا

شربوا كؤوس الحب في حان الصفا ... فتمايلت سكرا بها الأرواح

بالانكسار تحملوا في حبه ... فبدا عليهم من رضاه سماح

* * *

خلع الحبيب عليهو خلع الرضا وأنا لهم من فضله الفتاح

ملأ الحبيب قلوبهم من نوره فشذاهمو من عطره فواح

تحيي الحبيب ذكرهم وبنورهم وتزول عند لقاهمو الأتراح

كل القلوب لهم تحن تشوقا وتحبهم، ويحبهم ترتاح

* * *

الوسيلة..

شـــربت بكاســـات الغـــرام ســـلافـــة

وصـــرت أنا الســـاقي لمن كـــان حـــاضـــرا

بهـــا انتعـــشت روحي وجـــسمي ومـــهـجـــتي

أدير عليـــــهم كـــــرة بعـــــد كـــــرة

« عبدالقادر الجيلانى »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان ـ كما يرى بعض المؤرخين ـ الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وانما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحا لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزيا.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتا، وهي تعبير ـ كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها ـ عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلي الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الذوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي ... وناد مني صحوي بفتح البصيرةِ

شهِدْتُ بأن الله مولي الولايةِ ... وقد مَنَّ بالتصريفِ في كُلِّ حالةِ

سقاني الهي من كئوس شرابِهِ ... فأسكرنى حقًا فَهِمْتُ بسكرتي

وحكمني جمع الدِّنَان بماحوي — وكل ملوك العالمين رَعِّيتي
وفي حاننا فأدخل تر الكأسَ دائرًا — وما شرب العشاق الا بَقيَّتي

* * *

رفعت علي من يدعي الحبَّ في الوري — فقربني المولي وفزتُ بنظرة
وجالت خيولي في الأراضي جميعها — وزُفَّتْ لي الكاساتُ من كل وجهة
ودقت لي الريات في الأرض والسما — وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
وشاءُوسُ ملكي سار شرقا ومغربًا — فصرت لأهل الكرب غوثًا ورحمة
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي — يطاولني إن كان يقوي لسطوتي

* * *

أنا كنت في العُلَيَّا بنور محمد — وفي قاب قوسين إجتماع الأحبة
شربت بكاسات الغرام سلافةً — بها إنتعشت روحي وجسمي ومهجتي
وصرت أنا الساقي لمن كان حاضرًا — أدير عليهم كرةً بعد كرة
وقفت بباب الله وحدي موحدًا — ونوديت ياجيلاني: أدخل لحضرتي
ونوديت ياجيلاني: أدخُلْ ولاتخفْ — عُطيتُ اللوا من قبل أهل الحقيقة

* * *

ذراعي من فوق السموات كُلِّهَا — ومن تحت بطنِ الحوت أمددتُ راحتي
وأعلم نبت الأرض كم هو نبتةٌ — وأعلم رمل الأرض عَدًا لرملة
وأعلم علم الله أحصي حروفه — وأعلم موج البحر عَدًا لموجة
وماقلت هذا القول فخرًا وإنما — أتي الإذْنُ حتي تعرفوا منْ حقيقتي
وماقلتُ حتي قيل لي قُلْ ولاتخفْ — فأنتَ وليِّ في مقام الولاية

* * *

أنا كـنت مع نوحٍ أشــاهد فـي الوري بحــاراً وطوفــانًا علي كف قــد رتِي

وكـنــت وإبـراهـيـم مــلـقـي بـنـاره ومــا بـرد النيــرانَ إلا بدعـــوتِي

وكنت مع إسـماعيلَ في الذبـح شاهداً ومــا أُنزلَ المذبوحَ إلا بـفـتـيـــتِي

وكنت مع يعــقـوبِ في غـشــو عـينه ومــا برئت عـــيناه إلا بتـــفلـتِي

وكنـت مع ادريسَ لما ارتقـي العـــلا وأُسكِنَ فـي الفــردوسِ أحـسـن جنةِ

* * *

وكنـت ومــوسـي في مـناجــاةِ ربه وموسي عـصاه من عصاي استمدتِ

وكـنت مـع أيوب فـي زمنِ البـــلا ومــا برئـت بلواه الا بـدعـــوتِي

وكنت مع عــيسي وفي المهـدِ نـاطقًـا وأعطَـيْتُ دَاودًا حــلاوةَ نغــمـــتِي

ولي نـشـــأةٌ الحبِّ مـن قـــبلِ آدم وسري سري في الكونِ من قبلِ نشأتِي

أنا الذاكُــر المـذكــورُ ذكــراً لذاكــرِ أنا الشـاكــرُ المشكورُ شُكراً بنعــمـتِي

* * *

أنا العــاشقُ المعـشـوقُ في كل مضـمـرِ أنا السـامعُ المســمـوعُ في كل نغـمـةِ

أنا الواحــدُ الفــردُ الـكبُـيــر بذاته أنا الواصفُ الموصوفُ ـ عِـلْمُ الطريقةِ

مَلَكْـتُ بلاد الله شـرقًــا ومــغـربًا وان شــئتُ أفنيت الأنامَ بـلحـظةِ

وقـالوا: فأنت القطـب ـ قلت مشـاهداً وتالِ كـتــابَ الله في كـل ســاعــةِ

ونـاظُر مــــا في الـلوح مـن كل آيـةِ ومــا قـد رأيـتُ من شــهـودِ بمقـلتِي

* * *

فــمن كـــان يهـوانا يـجي لِمــحَـلِّنَا ويدخل حـمي السادات يـلق الغنيمـةِ

فــلا عـــالمٌ إلا بـعلـمي عـــالمٌ ولا سـالـكٌ الا بفــرضي وسنـتِي

ولا جــامعٌ إلا ولي فــيــه ركــعــةٌ	ولامنبــرٌ إلا ولي فــيـــه خُطْبــتي
ولولا رســـولُ الله بــالعـــهــد ســـابقٌ	لأغْلَقْتُ أبــوابَ الجــحــيم بعظمــتي
مُــريدي لك البشــري تكون علي الوفــا	وإن كنتَ فــي هَمٍّ أُغــشْكَ بِهِـمَّــتي
مـــريدي تمــسك بي وكن بي واثقًـــا	لأحــمــيكَ في الدنيــا ويوم القــيــامة
وكن يامـــريدي حــافظًا لــعـــهــودنا	أكن حــاضـــر الميــزان يَوْمَ الوقــيــعة
وإن شـــحــتْ الميــزانُ كــنت أنا لهـــا	بعين عــنايات ولطــف الحــقــيـــقــة
حَــوَائِـجِكُم مُــقــضِيــةٌ ـ غيــر أنَّني	أُريدُكُــمُـــو تمشــون طُرْقَ الحــمــيــدة
وَأُوصــيكُمُــو كــســر الــنفــوس فــإنَّهــا	مـــراتب عـــزٍّ عــند أهلِ الطــريقـــة
ومَنْ حــــدثـتـــه نفـــســـه بتـكـبـــر	تجـــدهُ صــغــيـــراً في عـــيـــونِ الأقلة
ومن كـــان في حـــالاتـه مـتـــواضـعًـــا	مع اللهِ ـ عَـــزَّتُهُ جَـــمـــيـعُ البـــرية

* * *

مريضة الأجفان..

وقـــفـــا بـي علـي الـطلـول قـليــــلا

نـتـــــبــــــاكـي، بـل أبـك مما دهـانـي

الهـــوي راشـــقـي بغــيـــر ســـهـــام

الـهـــوي قـــاتـلـي بـغـــيـــــر سنـان

« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوه: انه القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه الزنديق والمشرك.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وأيضا عرف هناك باسم «ابن سراقة»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربى» بدون أداة التعريف تمييزا له عن القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، بفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة «بالكفر والالحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمائة قد لايفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخري، وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبري في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكية»، ويليها في الأهمية كتاب «فصوص الحكم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء، وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضا كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل «قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وانما كان رائدا من رواد مدرستهم الشعرية، يصدح في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها ماجاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» إحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائد ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فاذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلا فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي احدي رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضة الأجفان ... علّلاني بذكرها، علّلاني
هفت الوُرْق بالرياض وناحتْ ... شجْوُ هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلةٌ لعَوب تهَادَي ... من بنات الخدور بين الغواني
طلعتْ في العيانِ شمسًا، فلما ... أفلتْ أشرقتْ بأفقِ جَناني

* * *

ياطلولاً برامةٍ دراسات ... كم رأتْ من كواعبٍ وحسانِ
بأبي ثم بي غزالٌ ربيبٌ ... يرتعي بين أضلعي في أمانِ
ما عليه من نارها فهي نور ... هكذا النور مُخمدُ النيران

* * *

يا خليليَّ عرجا بعِناني ... لأري رسْم دارها بعِيانِي
فاذا ما بلغتما الدار حُطا ... وبها صاحبيَّ، فَلتبكياني
طال شوقي لطفلةٍ ذات نثرٍ ... ونظامٍ ومنبرٍ وبَيانِ

* * *

من بنات الملوك من دار فُرسٍ ... من أجلِّ البلاد من أصْبهانِ
هي بنتُ العراق بنتُ إمامي ... وأنا ضدّها سليلُ يماني
هل رأيتهم ياسادتي أو سمعتم ... أن ضدّيْن قطُّ يجتمعانِ

* * *

وقــفــا بي عـلي الطـلول قـليــلاً نـتــبــاكي، بـل أبْك ِ ممـا دهانـي

الهــوي راشــقـي بغــيــر ســهــام ِ الهــوي قــاتـلي بغــيــر سـنان ِ

عـــرفـــاني إذا بـكيـتُ لديـهْـــا تُســعــداني عـلي البُكـا تُسـعـداني

* * *

وأذكـــرا لـي حــديـث هنـد ٍ ولبـني وسـلـيْــمــي وزينـب ٍ وعـنـان ِ

ثـم زيدا مـن حـــاجـــر وزرود خـــبــراً عن مـــراتـع الغـــزلان

واند بـاني بشــعــر ِ قــيس ٍ وليـلي أكــؤُسًـا للهـــوي بـغـــيـــر بَنان ِ

والهـــوي بينـنَا يســوقُ حــديثًــا طيــبــا مـطربـا بغــيــر لســان ِ

لرأيْـتم مــا يذهـبُ العــقـلُ فـيــه يمنٌ والـعــراقُ مـعــتنقـــان ِ

* * *

كــذب الشــاعــر الذي قــال قــبلي وبأحــجــار عــقْله قــد رمــاني

« أيهــا المنـكـح الثــريَّا سُــهْـيــلاً عَــمْــرَكَ الله كــيف يلتــقــيــان

هي شــامــيـــةٌ إذا مــا إســتــهـلَّت وسُـــهــيـلٌ إذا إســتــهلَّ يمـاني

* * *

إلهي..

إلـهي ضـــاع عـــمـــري في غـــرورٍ

وفــي لـهـــــــوٍ وفــي لـعــبٍ يـطــولُ

إلـهـي غــــافـــــر الـزلاتِ يـا مَـنْ

تـعـــالي، مـــالـه أبـدا مــــثـــيـلُ

« أحمد البدوي »

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥هـ، صاحب الطريقة الأحمدية التي كان لها أعمق الأثر في تاريخ مصر دينيا وإجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلي مكة حيث تلقي علي يد معلميها القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلي العراق ثم إستقر به المقام في مصر التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغذارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه، وعندما استقر فى طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلي مدينة كبري.

ومن أهم الاثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهال إلي الله وإستعاذة به. وأيضا» أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردًا، وترتبط الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر الله والصلاة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلهي أنت للاحسان أهلٌ ... ومنك الجود والفضل الجزيلُ
إلهي بات قلبي في هموم ... وحالي لا يُسرُّ به خليلُ
إلهي تب وجُد وارحم عُبَيْداً ... من الأوزار مدمعهُ يسيلُ
إلهي ثوب جسمي دنستهُ ... ذنوبٌ حِملُها أبداً ثقيلُ

* * *

إلهي جُد بعفوك لي فاني ... علي الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهي حُفْني باللطف يامن ... له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهي خانني جلَدي وصبري ... وجاء الشيُب واقتربَ الرحيلُ
إلهي داوني بدواء عفو ... به يشفي فؤادي والغليلُ

* * *

إلـهـي ذاب قـلـبـي مـن ذنـوبـي ... ومن فِـعْلِ القـبـيح أنا القـتـيلُ

إلـهـي رَدِّنـي بـرداءِ أنـسـي ... وألبـسْـني المهـابةَ ياجليلُ

إلـهي زحـزِح الأسـواء عني ... وكنْ لـي ناصـراً نِـعْمَ الكفـيلُ

إلـهي سـيـدي، سندي وجـاهي ... فـمـالي غـير عـفـوك لي مـقـيلُ

* * *

إلهي شَـتَّـتتْ جـيْش إصطبـاري ... همـومٌ شـرحُـهـا أبداً يـطولُ

إلهي صـرتُ من وجـدي أُنادي ... أنـا العـاصي المسئ، أنـا الـذليلُ

إلهي ضـاع عـمـري في غـرور ... وفـي لـهـوٍ وفـي لـعبٍ يطـولُ

إلـهـي طـالمـا أنـعـمْـتَ منَّـا ... بجـودٍ منك فـضـلاً يسـتطيلُ

* * *

إلـهي ظـاهراً أدعـوك ربـي ... كـذلـك بـاطـنًا أنـت الجـليـلُ

إلـهي عـافـنـي مـن كـلِّ داءٍ ... بجـاهِ مُـحـمـدٍ نعْـم الخليلُ

إلـهي غـافـر الزلاَّت يامنْ ... تعـالي، مـالـه أبدا مـثـيلُ

إلـهـي فـاز مـن نـاداكَ ربـيِّ ... أتاه الخـيـرُ حـقًّـا والقـبـولُ

* * *

إلـهي قـلْتَ ادعـوني أجِـبكُمْ ... فـهـاك الـعـبـدُ يدعـو ياوكـيلُ

إلهي كـيـف حـالي يوم حَـشْـرٍ ... إذا مـاضـاق بالعـاصي مـقـيلُ

إلـهـي لا الـه سـواكَ ربـيّ ... تعـالي، لاتُمـثـلهُ الـعـقـولُ

إلـهي مـسـني ضـرٌّ فـأضـحي ... به جـسـمي يُبلبلـه النحـولُ

إلهي نجني من كلّ كربٍ ... ويسّرْ لي أموري باكفيلُ

إلهي هذا الأوقاتُ تمضي ... بأعمارٍ لنا، وبها تزولُ

إلهي والني خيْراً، وأحسنْ ... ختامي عندما يأتي الرسولُ

إلهي ياسميعُ أجبْ دعائي ... بطه من تيسرُ له الحمُولُ

فصلِّ عليه ربيِّ كلُ وقتٍ ... صلاةً لاتحولُ ولاتزولُ

وآلٍ والصّحابِ ذوي المعالي ... وفي طي الكلامِ هُمو الفحُولُ

* * *

أطيار الجناق..

بكت عيني غداةَ الدمعِ دمعًا

وأخرى بالبكا بخلتْ علينا

فعاتبتُ التي بخلتْ علينا

بأن غمضتها يومَ التقينا!

« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعلما من الأعلام البارزين في التصوف والنور طوعا ويسعدني بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختاره فلسفة روحية لفكره، وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحياها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلي الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، الا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المثنوي» أشهر كتبه علي الاطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ماجاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية الا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلته العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمثنوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلاطين.

ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المثنوي»: هذا الكتاب أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان

الجنان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون، ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في كتابه «المثنوي» إنعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف الرقيقة، والإبانة عن الخفايا من الحكم والحظات البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الالهي رسالة العشق من البداية إلي النهاية، وعلي حد تعبيره «لوخلا قلب الانسان من العشق لم يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لايعدو أن يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الرومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال للفظي والروحي، ونذكر منها هذا الأبيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعًا ... وأخري بالبكا بخلتْ علينا
فعاتبتُ التي بخلت علينا ... بأن غمضتها يوم التقينا!
فديتُك، ياذا الوحي آياته تتري ... تفسرها سرًا وتكني بها جهرا
وأنشرت أمواتًا وأحييتهم بها ... فديتك ما أدراك بالأمر وما أدري!
فعادوا سكاري - في صفاتك - كلهم ... وما طعموا إثمًا ولاشربوا خمرا
ولكن بريقَ القربِ أفني عقولهمُ ... فسبحانَ من أرسي وسبحانَ من أسري
سلامٌ علي قوم تنادي قلوبهم ... بألسنة الأسرار: شكرًا له شكرا
فطوبي لمن أدني من الجلد دَلْوَه ... وفي الدلو حُسْنُ يوسفَ - قال: يابشرا!!
يطالع في شعشاع وجنه يوسف ... حقائقَ أسرار يحيطُ بها خبرا
تجلي عليه الغيب وأندك عقلُه ... كما اندكَ ذاكَ الطور استهدمَ الصخرا
فظل غريقُ العشقِ روحًا مجسمًا ... ونورًا عظيمًا لم يدر دونه سترا

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملا معه فكره، ومواقفه، وايمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز علي الانسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضا «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحا من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عـبـرة حـارت لمعناها العقـولُ ... عن رسولِ الروم في أرضِ الرسولِ

جاء يطوي البيدَ سعيًا والحضر ... يسأل الأحياءَ عن قصرِ عمر

أين قصر ضم خير المالكينَ ... والهدي والطهر والنور المبين

قصره لاشك مرفوع البناء ... أنصفوا لو شيدُوه في السماءِ

قال بعضُ الناس: ياضيفَ العربْ ... قصرهُ فوقَ الدراري والذهب

* * *

لاتراه في الملا عين البصر ... بل تراه في العلا عين الفكرْ

في سماء المجد مرفوع المنار ... ركنهُ زهدٌ وذلٌ وانكسارْ

التآخي فيه والعدل بناء ... ومباني الناس غش ورياءْ

كل من أغلق عينيه هواه ... فهو في الظلمةِ حاشا أن يراهُ

منزل الأرواح صدقٌ ووفاء ... منزل الأجسامِ لونٌ وطلاءْ

* * *

ما لقلبي بات بالشكوي ينوح ... إن قومي حالهم من قوم نوح

أسد لوا جهلاً علي النور الحجابا ... بل أصموا السمع واستغشوا ثيابا

إن نار الحقدِ في قلب الحسودِ ... حرمته ظل جناتِ الخلودِ

ومــــضي الرومــي في شــــوق عظـيم | يســــأل الـعـــــابرَ عـنه والمقـــــيم
فـــــأهاج الـشــــوقَ مـنه والهــــيـــــامْ | صـــــوتُ أعـــــرابيـــة بين الخـــيـــــامْ

* * *

تحت ذاك النـخل في حـصـن حـصين | حي مــــــولانا «أمـــيـــــر المؤمـنين»
قــــد تخلـي عن جــــواد ومــتـــــاع | ينـشـد الـكنزل المرجي في البــقـــاع
قـــال: يا ســبـحـــانه رب الوجــود | أين ذاك الـقـــصـــر أو أين الجنودْ؟
لم أكن مـن قـبل أخـشي قـيـصـيـراً | لا، ولا سـطوة آســـــاد الشـــــري
فلـمـــــاذا أوهن الخـــوفُ جناحي | من أمــيـــر نامَ في غـيـــر ســلاحِ؟

* * *

أحــــصـــــون يا إلـهـي وقـــلاع | تتـــواري خلـف هاتيكَ الرقـــاع
من يخف سـلطان ذِي العـرش المجـيـدْ | خــــافـــه كـل قـــريب وبـعـــيـــدْ
وبخـــــوف الله فـــــاز المؤمنون | حـــيـث لاخـــوف ولاهم يحـــزنون
ملك الـعُـربْ جـمـيـعـا والعُـجمْ | نائـمٌ في غــــيـــر جندِ أوحـــشمْ
عِـبَــرةٌ تروي لجــيلٍ بعــد جــيلْ | نـام ظـلُّ اللهِ فـي ظـل الـنـخــــيـلْ

* * *

وصـحـــا الخطاب مـن بعــد المنامْ | مـثل صـحو الـشمس من بـعد الغـمـامْ
أقـــبل الـضـــيف وأهـداه الســـلامْ | وســــــــلام الـود يـتـلـوه الـكـلامْ
ســـأل الخطـاب ذا الجــــاه العـظيـمْ | عن صـفــات المبـدِع الـبـر الرحـيـمْ

تسكن الأرواحُ أجسادَ الأنامِ ... وهي نور كيف تحيا في الظلامِ
قال سبوح إله الملكوتْ ... فاطر الأكوان قد سي النعوتْ

* * *

أسكن الأرواحَ أو كارَ الصورْ ... فاستجابت حين ناداها القدرْ
هذا الأرواح أطيار الجنان ... فارقت أوطانها للامتحان
هي كالعطْر طوته الزهراتُ ... وهي كالفكر حوته الكلماتُ
إنما الألفاظُ نطق ورسومْ ... والمعاني روح هاتيك الجسومْ
هبطت من وقتها من لازمانْ ... وثوت في أرضها من لامكانْ

* * *

عالمُ الغيب له السر المصونْ ... أمره في خلقه كن فيكونْ
كلم الورد بسر فابتسمْ ... عن أريج علم الطير النغمْ
وهو أيضا قال سراً للحجرْ ... فجلا منه عقيقا للنظرْ
وهو قد أفضي بسر للسحاب ... فارتوت من فيضه حمر الهضاب
عندما أوحي بسر للترابْ ... صار انسانًا له الكون استجابْ
ذلك العذب الفرات الهاطلُ ... في فم الحيات سم قاتلُ
ليس يحبو جوهر العلم النقاءْ ... غير أصداف قلوب الأولياءْ
جدد الخبزُ حياةً ونماءْ ... حينما أصبح للحي غذاءْ
ومتي أذعن للبحر السحابْ ... صار بحراً موجه طامي العبابْ

صـاف مـحـبـوبك إن رمت الصـفـاءْ　　وأفن في المحـبـوبِ إن رمت البـقـاءْ

وتجلي سـره لـلأنبـيـاءْ　　فـتـسـامـوا فـوق مـعـراج السـمـاءْ

* * *

كـم عـروسٍ جليـت للـنـاظرينْ　　وهـي لاتهـدي لـكـل الخـاطبينْ

إنزع الأصـبع عن سـمع اليـقينْ　　تسـتـجب روحـك للـروح الأمينْ

قـيـد الجـسم بهـا انشق الحـجـرْ　　ويد الـروح لهـا انشـق القـمـرْ

قـطر نـيـسـان إذا مـا أمطـرا　　في فـم الأصـداف أضـحي جـوهرا

كُنْ جـليـسَ الأنبـيـاءِ المرسلينْ　　في كـتـاب اللـهِ ربِ العـالمينْ

* * *

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
فشاهدتُه في كل معني وصورةِ
وخطابني مني بكشفِ سرائري
فقال أتدريَ منْ أناقلتُ منيتي

« إبراهيم الدسوقي »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٣٣ ـ ٦٧٦هـ) ينتهي نسبه إلي الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من أجلاء مشايخ مصر، وطريقته "البرهامية" تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللدسوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفي آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوي والشيطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولايزال مسجده يقصده الالاف حتي يومنا هذا فقد لخصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبده فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولاتفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المفضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة، وعذوبة. وهاهي ذى قصيدة الدسوقي النورانية «سقاني محبوبي»:

تجلي لـي المحـبـوبُ في كل وجـهـة فـشـاهـدته في كل مـعـني وصـورة
وخـاطبني مـني بكشف سـرائري فـقـال أتدرى من أنـا قلتُ مـنيـتي
فـأنت مـنائي بـل أنا أنـت دائمًـا إذا كنتَ أنتَ اليـومَ عينَ حـقـيقـتي

* * *

فـقـال كـذلـك الأمـر لكـنه إذا تعـينـت الأشـيـاءُ كنت كنسـخـتي
فـأوصلت ذاتي بـاتحـادي بذاته بغـيـر حلـول بل بتـحـقـيق نسبـتي
فـصـرت فناءً فـي بقـاء مـؤبد لـذات بديمـومـة سـرمـدية

* * *

ويبـني عني فـأصـبـحت سـائلاً لذاتي عـن ذاتي لشـغلي بغـيـبتي
وأنظـر في مـرآة ذاتي مـشـاهدًا لذاتـي بذاتي وهـي غـايةُ بـغـيـتي
فـأغـدو وأمـري بين أمـرينْ واقفٌ علومـي تمحـوني ووهـمي مـثـبـتي

* * *

خـبـأتُ له في جنة القـلب منزلاً تـرفـع عن دعـد وهـند وعـلـوة
ومـا شـهـدت عـينـي سـوي عين ذاتها وإن سـواهـا لايـلـم بـفـكـرتـي
بـذاتي تـقـوم الـذات في كـل ذروة أجـددُ فـيـهـا حـلةً بعـد حـلة

* * *

سـقـانيَ مـحـبـوبي بكأس المحـبـة فـتـهْتُ عـن العـشـاق سكرًا بـخلوتي
ولاح لـنا نـور الجـلالـة لوأضـا لصُـم الجـبـال الـرسـايات لـدُكّت
وكنت أنـا السـاقـي لمن كـان حـاضـرًا أطوفُ عـليـهـم كَـرَةً بـعـد كـرة

* * *

وناد مـني سـرًا بسـر وحـكمـة وأن رسـول الله شـيـخي وقـدوتي

وعـــاهدني عـهـــداً حـفـظتُ لعـهـــده وعـــشتُ وثيـــقًـــا صـــادقًـــا بمحـــبـــتِي
وحكّمني فـي ســـائر الأرض كُلـهـــا وفـي الجنّ والأشـــــبـــــــاح والمرديّـةِ

* * *

وفي أرض صين الصين والشـرق كُلِّهـا لأقـــصـي بلاد الله صـــحَّت ولايتي
أنا الحـــــرف لا أُقــــرأ لـكل مـناظـرٍ وكلُّ الـوري من أمـــر ربِّي رعـــيَّـــتي
وكم عــــالـم قــــد جــــاءنا وهو منكرٌ فـــصـــارَ بفـــضل الله من أهـل خـرقـــتي

* * *

ومـــا قلـتُ هذا القـــول فـــخـــراً وإنما أتي الإذن كـي لايجـــهلون طـريقـــتي
غنيت عــن الدنيـــا بفـــيـضِ عطـائه وأيُّ عـطايـاهـم يداني عـطيّـــــتي؟
وصـرتُ علي بُعْــدِ المسـافـاتِ واصــلاً لأدني دنُّـو في إرتـفـــاعي لـغـــايـتي

* * *

فـوجه الحـبيب الحقّ مـشرق وجـهـتي ونورُ الحـبـيـب الحقّ ســاطع قـبـلتِي
وفي القلب أشـــواقٌ يتـرجع فـيـضُهـا عن الألق الســامي إلي قُـدْسِ حـضْـرةِ
شـهـــدت وشـاهـدنا، وطابت نفُـــوسنا وقـــد لـذَّ لي ذلِّي إليــــه وخـــشـيــــتِي

* * *

أحـنُّ عـلـي ذلٍّ، وأهـــوي عـلـي هــدي وأســـــري علي علـم لأنوارِ طـلعـــــةِ
رضـــيتُ به حـــتي دخـلت رياضـــه فـــأنعـم بهـــا من روضـــة أيِّ روضـــةِ
ومـــا لـذة العـــشـــاقِ إلا يـقـــينهُم بشـــمل جـــمـيع بـعـد طـول تشـــتتِ
وأغـــسلُ قلـبي من ســواك، ولم أجـــد لنـفـــــسي إلا نـور ذاتك بغْـــــيـــــتِي
تعـــــاليتَ بـالعطـفِ الكريمِ، رعــــاية فَـــــبــــاركْـتَ زلاتي وآمّنْـتَ روعـــتِي

* * *

تعشقت نور الله..

إذا قـــــيل لـي أطـلب قـلـت ربـي مـطلبـي

وان قـــيل لي اشــــرب قلـت أنواره كــــأسي

وكل عـــــهـــود قـــــد تـنكس أصلهــــا

ولـكن عـــــهـــــد الـلـه بـاق بلا طـمـس

« الشيخ على عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مانظمه من أشعار في الحب الالهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وانما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية ـ إذا جاز التعبير ـ وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي الفؤاد. أنظر اليه يقول:

وان الوردَ يذبُلُ بعد وقت ... وورد الحب كانَ به ذُبولي

وريٌّ الناس من ماء ولكنْ ... شرابُ الحب يذكي منْ غليلي

أداري الحبَّ حتي لويراني ... أخو وجد تشككَ في نُحولي

وبي نارٌ لو استقصي لظاها ... لحقر وجدَه وحَذا سبيلي

ولي بالوجدِ سرٌّ لا يُضَاهَي ... ومَا أنَا في المحبَّةِ بالهزيل

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلا حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاما فقط (١٨٩٤ ـ ١٩٤٨م) إلا أنه ترك آثارا عظيمة تدل علي ماكان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيرا، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علما من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مانظمه من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هوي نفسي، فعشتُ بلا نفْسِ ... وجافيتُ أنسي، فانحدرتُ إلي الأنْسِ
ولم أُبد أمري للعباد، فطالما ... كتمتُ الذي ألقي عن الجنِّ والإنْسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبتَّي ... وعانيتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ

* * *

وعشتُ زماني لست أحفل بالوري ... وكيف، وقلبي هام في مشهد القُدْسِ
وعلمت غيري ما أفادَ من الهُدي ... فلم يبْقَ ذو فهمٍ لديَّ علي طمْسِ
إذا وُسّد الناسُ القبورَ، فإنني ... جعلتُ التقي والذكر بين الوري رمْسي

* * *

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا ... ومن يخشَ ذات الله لم يَرَ من بأسِ
وهل غيُر ذات الله للنفسِ مطلبٌ ... حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجّتُ بالقرآن نفسي عقيدةً ... أصونُ به نفسي من الزَّيغ والدسِّ
وما اتخذت روحي سوي الله غايةً ... فَتم الهدي للروح والقلب والحسِّ
وإن شرب الناس الطِّلا وتصببوا ... فسُنَّةُ خلق الله في شربها كأسي

* * *

وإن رفع المثرون عُجبًا رؤسهم ... رفعتُ بذكر الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمس اهتداءً ليومهم ... جعلتُ رضا ربِّي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده ... وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده

* * *

تعشقتُ نور الله وهو بصيرتي ... وقد وضح البرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدت روحي جلالكَ وإرتقتْ ... تجَّردتُ عن معْناي في عالم الحسِّ
أحبّك ياربي محبّةَ موقنٍ ... ومن قوةِ الايمانِ أُصبح أو أُمسي

* * *

فـؤاديَ قـد أبعدتُ عـن مشـهـد الوري فطُهّـر في نجـواكَ من ظلمـة الرِّجْسِ
أطوف عـلي الأبـواب قلبيَ مُـــوجَعٌ وليس سـوي رحـماكَ لـلقلبِ من نِطْسِ
وأعـــد مني فـي الحبِّ علـمي بقــدْرِه فليس غـرامي فـيـه يدرك عن قـيْسِ

* * *

ولم أعـشق الـدنيـا فـتلك مـجـازة تهيئُ لـلأخـري وفي فـوتهـا عـرُسي
لقـاوُك يـارحـمنُ عـيـدي وعُـدتي ونُورك غـيـثي وهو لـي في الوري أُنسي
وبحْـرُك مـنه قـد لقـيـتُ جـواهري بشـاطئـه سُـفـني علي لُجّـهِ غَـطسي

* * *

وطيبُ الـوري ورْسٌ ومـسك وعنبـرٌ وطيـبي من مـحيـاك أسـمي من الورسِ
ولستُ مـن الدنيـا، أمـيلُ إلـي العـلا فـإنَّ عُـلا الدنيـا لأصـحـابه يُـنسي
أُمـتع أعـضـائي بـذكـركَ دائمًـا وهل غـيـرُ ذكْـر الله يسكنُ فـي نفـسي

* * *

وكُلُّ رجـائي أن أحـبك صـادقًـا إذ الصـدقُ في الوجدان مـرتبة القُـدْسِ
ومـا فــضلهُ وقـفٌ علي أيِّ عـالمٍ وحـقك مـا حُـدَّ العطاء علـي جنس
إذا رضي الرحـمن عن قلـب عَـبْـده جرت مـركَبُ الأقدار معـه علي اليبْس

* * *

تـخـلَّ ولاتحـفـلْ بجـنٍّ ولا انـسٍ وعشْ في هوي الرحـمن تسعـدُ بالأنْسِ
وأقـبـل علي مـولاك بالـقلب مـخلـصًا وأسلـمْ وسلـم واتّجـّـه
وخُـذْ لك بـالايمان أصـدقَ وجـهـة وطهـر بهـا نفسًا عن الـغي والرجس

* * *

تجرد تجدْ مولاكَ أكبرَ ناصرٍ   وفوض له ماكان في الغد والأمْسِ

حياةُ الوري حُلوٌ ومرٌّ وإنما   حلا المرءُ بالتوحيد من رقة الحسِّ

ومن لايري إلا الإله مراده   حرامٌ عليه الخوضُ في العرشِ والكرسي

* * *

ومن يتعشق نُورَه وجلالَهُ   فليس له التشبيبُ بالبدْر والشمسِ

وانك لو عظمْتَ دينَك عالمًا   وعالمت بالحسْني وأدَّبتَ للنَّفسِ

وكنت علي الأحداثِ بالله راضيًّا   سواءٌ عليك الموتُ أو ساعةُ العُرْسِ

* * *

سعدْتَ من الدنيا بربِّك محُسنًا   ونلت من الأخري عطاء بلا بخْسِ

يقولون لي من أنت؟ قلتُ: موُحدٌ   إلي ربه يسعي ولم يَرَمن بأسِ

إذا قيل لي أطلبْ قلت ربِّيَ مطلبي   وإن قيل لي أشربْ قلتُ أنواره كأسي

* * *

وكلٌّ عهودٍ قد تنكسَّ أصلها   ولكنَّ عهد الله باقٍ بلا طَمْسِ

سلوني عن العشاق قد ذقتُ حُبهَم   وإني لهم رأسٌ إذا كان من رأسِ

* * *

وما هم سوي أعضاء جسْمي وبزتي   أصافحهم ما شئتُ لكن بلا لمسِ

وماحيلتي إلا انكساريَ في الحمي   وإن إنكسار القلب يكشف عن قدسي

وحلوُ الهوي عندي لقاء أحبتَّي   ومرُّ الهوي عندي وفي هجرهم تعْسي

* * *

وأعـــرف رحـــمـــانـــي وأُدركُ عـــفـــوهُ   وأنهـضَ مـــعـــتـــزا ومـــا أنا بالمنْسي

وانَّ حـــبـــال الوجـــدِ تربط مـــهـــجـــتي   وقلـبي بحب الـلـه يعـــبـــق كـــالورسِ

وإن كنت فـي ســـعـــدٍ فـــذلـــك فـــضلهُ   وإن لم أكنْ من سادة العُرب والفُـرْسِ

* * *

فـــقل للذي يُزجـي الشـــراع دع الكريَ   تجـد سُفن الاحـسـانِ تجري علي اليـبسِ

وســـرْ مـــوقـنا أن الاجـــابة للهـــوي   إذا مـــادعـــا الداعي ولاتكُ في حـــدْسِ

فـكلُّ الـذي تـرآه والكـون خـلقـــــــهُ   ومـــا نفع التـــفـــريـقُ بالنوْع والجـنسِ

* * *

حـسبتُ الهـوي سهـلاً فخُـضتُ عبـابَه   فطـوراً به أطـفـــو، وطوراً بـه غَطْسي

إلـي أن أتـتـنْـي مـنْ لـدُنه عـنـايـةٌ   وصلـتُ بهـــا برَّ الســـلامـــةِ والأنسِ

* * *

فطرة النفس..

والكل أنت بمعني لاخفاء به
والنور بحجبه كالماء فى اللبن

والعبدُ محتجبٌ فى عزٍّ مالكه
دقت معارفه فى الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ، وأحد الذين تركوا أثرًا كبيرًا بعد وفاتهم، فى مريديهم، وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم سنى عمره. والإمام العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى، ولد فى مرسية ببلاد الأندلس، تلك المدينة التى نسب إليها فسمى "المرسى" فى سنة ٦١٦ هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الي الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه أبي الحسن الشاذلي سنة ٦٤٢ هـ ، الا أن نجمه سرعان ما سطع فى سمائها، حتي أصبح كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادىء السلوك القديم، وسبل الوصول الى رضاء الله، وفلسفته فى الزهد ،التصوف، متخذا من جامع العطارين مركزا لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله، يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحا جليًا فيما خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترابط رائع في لوحة شعرية جميلة مفعمة بالحلاوة والرقة والعذوبة.

إن كنت سائلنا عن خالص المننِ ... وعن تآلف ذات النفسِ بالبدنِ

وعن تشبثها بالحظِّ مذ ألفت ... أدرانها فغدَت تشكو من العطَنِ

وعن بواعثها بالطبع مائلةً ... تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجنِ

وعن حقيقتها فى أصل معدنها ... لا ينثنى وصفُها منها إلى وثن

وعن تنزلها فى حكمها ولها ... علمٌ يفرقها فى القُبح والحسَنِ

* * *

فاسمعْ هُديتَ علومًا عز سالكها ... على البيان ولا يغررك ذو لَسنِ

قصداً الى الحقِّ لا تخفى شواهدُها ... قامت حقائقها بالأصل والفننِ

يا سائلى عن علوم ليس يدركها ... ذو فكرةٍ بمفهوم لا ولا فطنِ

لكن بنور عليٍّ جامعٍ خمدَت ... له العقولُ وكلُّ الخلقِ فى وَسَنِ

خُذها اليك بحق لستَ جاهلهُ ... والأمر مُطلعٌ والحقُ قيدنى

* * *

على الحقيقة خُذْ علم الأمور ولا ... تحجبك صورتها فى عَالم الوطن

فطرة النفسِ سرٌّ لا يُحيط به ... عقل تقيد بالأوهام والدرنِ

لكنها برزت بالحكمِ قائمةً ... حتى تألفها السكانُ بالسَّكنِ

وكيْ يقال عبيدٌ قائمون بما ... ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن

* * *

والنفس بين نزولٍ فى عوالمها ... كآدمٍ وله حواءٌ فى قرَنِ

والروح بين ترقٍّ فى معارجها ... وهى الموافق للتعريف والمننِ

من الحجاب دنت أنوارها فبدتْ ... نوراً تنزل بين الماء والدِّمنِ

مثالها فى العُلا مرآة معدنها ... ألطافها خفية كالسِّر فى العلنِ

* * *

زيتـونة زيتـهـا نورٌ لصـاحـبـهـا قـامتْ حـقـائقـهـا بالأصـلِ والفُنن

ونار دعـوتـهـا مـاءٌ لشـاربهـا مُـدَّت هـدايتـهـا فى الكـونِ والكُبن

والكـل أنت بمـعنى لاخـفـاء به والنـور يحـجـبـه كـالمـاءِ فى اللَّبنِ

والعـبـدُ مـحـتـجـبٌ فى عـزِّ مـالكه دقت مـعـارفـه فى الدهرِ والـزمنِ

* * *

بحار الهوى..

يا من به علقت روحي فقد تلفت

وجدا فصرت رهينا تحت أهوائي

أبكي على شجني من فرقتي وطني

طوعا ويسعدني بالنوح أعدائي

« الحلاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفي آخر بلغت شهرته الآفاق فى الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج ، صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس فى تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذى كان يعمل بصناعة الحلج، وآخرون يقولون: إنه سمى كذلك لأنه كان يكاشف الناس بما في قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد يبشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفزعة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام فى بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقى دعواه للهدايا شعرا فيسحر الألباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقتادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتطاولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به ويرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر باعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، ، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به في خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذق، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محفورا فى قلوب أحبائه، مستقرا فى صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقى الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر فى مواضع مختلفة، وفى أحداث مختلفة من حياته، وسنبدأ بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب فى الحب الالهى والتصوف:

لى حبيب أزور فى الخلوات ... حاضر غائب عن اللحظات

ما ترانى أصغى اليه بسرى ... كى أعى ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكلٍ ولا نقْط ... ولا مثل تغمة الأصوات

فكأنى مُخاطبٌ كنتَ إيّاه ... على خاطرى، بذاتى لذاتى

حاضرٌ غائب قريبٌ بعيدٌ ... وهو لم تحْوِه رسُم الصفات

هو أدنى من الضمير الى الوهمِ ... وأخفى من لائح الخطرات

* * *

ومن أعجب الأشياء ظبىٌ مبرقعٌ ... يشير بعنابِ ويومى بأجفانِ

ومرعاهُ ما بين الترائبِ والحشا ... ويا عجبًا من روضة وسط نيرانِ

لقد صار قلبى قابلاً كلّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف ... وألواحُ توراة ومصحف قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهت ... ركائبهُ فالحبُ ديني وإيماني
لنا اسوةٌ في بشر هند وأختها ... وقيس ليلى ثم سي وغيلانِ

* * *

يا سر سر يدق حتى ... يخفى على وهَّم كل حي
وظاهراً باطنًا تجلى ... لكل شيء بكل شي
ان اعتذاري اليك جهل ... وعظم شك وفرط عي
يا جملة لكل لست غيري ... فما اعتذاري اذًا اليّ
أدنوا فيبدعني خوفي فيقلقني ... شوقُ مُمكّن في مكنون أحشائي
فكيف أصنع في حب فيقتلني ... شوقُ مُمكنٌ قد ملَّ من سقمي أطبائي
قالوا تداو به منه فقلت لهم ... يا قوم هل يتداوى الداءُ بالدائي
فحبي لمولاي أضناني وأسقمني ... فكيف أشكو الى مولاي مولائي

* * *

وقال الحلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:

اقتلوني يا ثُقاتي ... ان من قتلي حياتي
ومماتي في حياتي ... وحياتي في مماتي
أنا عند مَحْو ذاتي ... من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي ... من قبيح السيئات
فاقتلوني واحرقوني ... بعظامي الفانيات

ثم مروا برفاتي   في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي   في طوايا الباقيات

* * *

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت   الا وحبّك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ الى قومٍ أحدّثهم   الا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتُك محزونًا ولافرحًا   وإلا أنت بقلبي بينَ وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش   الا رأيت خيالاً منك في الكاس
ولو قدرْت على الاتيانِ جئتكمو   سعيًا على الوجه أو مشيا على الراس
ويا فتى الحقَّ أن غنيتَ لي طربًا   فغن وارْحمتَا من قلبك القاسي
مالي وللناس كم يلحْونا سفها   ديني لنفسي ودين الناسِ للناسِ

* * *

لبيك لبيك يا سرئي ونجوائي   لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك   فهل ناديت أم ناجيت إيائي
يا عين عين وجودي يا مدى همي   يا منطقي وعباراتي وإعيائي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري   يا جملتي وتباعيضي وأجزائي
يا من به علقت روحي فقد تلفت   وجدًا فصرتُ رهينًا تحتَ أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني   طوعًا ويسعدني بالنوحِ أعدائي

* * *

ما زلتُ أطفو في بحار الهوى   يرفعني الموجُ وأنحطُ

فتارةً يرفعني موجها　　وتارةً أهوى وأنغطُ

حتى إذا صيرني في الهوى　　إلى مكانٍ ما لهُ شطُّ

ناديتُ يا من لم أبُحْ بسره　　ولم أخنه في الهوى قطُّ

تقيك نفسي السوء من حاكم　　ما كان هذا بيننا شرطُ

* * *

تباركت مشيئتك يا قصدي ومرادي　　يا ذات وجودي وغاية رغبتي

يا حديثي وايمائي ورمزي　　يا جميعي وعنصري وأجزائي

* * *

تجاسرت فكاشفتـ　　ـك لما غلب الصبرُ

وما أحسن في مثلـ　　ـك أن يُنتهك السترُ

وان عنَّفني الناسُ　　ففي وجهك لي عذرُ

كأن البدرَ محتاجٌ　　الى وجهك يا بدرُ

* * *

وحُرمة الود الذي لم يكن　　يطمع في افساده الدهرُ

ما نالني عند هجوم البلا　　بأسٌ ولا مسَّني الضرُّ

ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصلٌ　　ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصلٌ

* * *

نديمي غير منسوب　　إلى شيء من الحيْف

دعاني ثم حياني　　فعل الضيف بالضيف

فلـمـــــــــــا دارت الـكـأسُ   دعـــا بـالـنـطـع والـســـيف

كـــــذا مـن يشـــرب الـراح   مـع الـتـنـيـن فـي الصـــيف

* * *

أنـا ســـر الحق مـــا الحـق أنـا   بـل أنـا حق فـــفـــرق بـيـنـنـا

أنا عـين الله فى الأشــيـــاء فـــهـل   ظـاهـر فـي الـكـون إلا عـــيـنـنـا

ســبــحـــان مـن أظهــر نـاسـوته   ســـر سـنـا لاهوتـه الـثـــاقـب

ثـم بـدا لخـلـقـــه ظـاهـراً   فـي صـــورة الآكل الـشـــارب

حـــتى لقـــد عـــاينـه خلقـــه   كـلحـظة الحــاجب بـالحــاجب

* * *

يـا مـــوضع الـنـاظـر من نـاظـرى   ويـا مكـان الســـرّ من خـــاطـرى

يـا جـــملـة الـكل الـتـي كلـهـــا   أحـب من بـعـض ومـن ســـائـرى

* * *

الحب مـــا دام مكـتـومًـا على خـطر   وغـــاية الأمـن أن تدنـو من الحـــذر

وأطيـب الحب مـــا تمَ الحـــديث به   كـالنار لم تؤتْ نفـعًا وهـى فى الحجـر.

* * *

كيف السبيل؟!..

فنحن كـــدودِ القـــزِ يحـــصــــرنـا الذى
صنعنـا بدفـع الحــصـــرِ ســجنًا لـنا منا
فـكـم واقـفٍ أردى وكـم ســــــائرٍ هـدى
وكـم حـكـمـــــــةٍ أبـدى وكـم ممـلـقٍ أغـن

« الششترى »

كان من الأمـراء وأولاد الأمـراء، فـصار من الفـقـراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ على بن عبد الله النميرى الملقب بالشـشتـرى نسبـة الى مسقـط رأسـه قرية "شـشتـر" بوادى "آش" بالأندلس ولعل السـر وراء هذه العبـارة التى كـان يشـار بهـا الى الشـشـتـرى (٦١٠ - ٦٦٨هـ) هو نشـأته فى أسـرة عظـيمـة الثـراء والجـاه والنفـوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششترى الذى حفظ القرآن فى صغره ثم درس الفقه، حياته تاجرا يجوب البلاد شرقا وغربا وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبى مدين» الصوفى المشـهور، ولزم مجلس محيى الدين بن سـراقـة تلمـيـذ «السهـروردى» ، وأخـذ عنه التصوف.

ولكن أكثر مـا أثر فى الششترى وأحدث تحـولا جذريا فى حياته ، وجـعله يتحول الى التصوف بكل جوارحـه وحواسه، ويصبح واحدا من أهم أئمة التـصوف فى المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار فى عصر المعروف بـ «ابن سبعين».

ويصف الشـشترى مـعلمه ابن سـبعين الذي التـقي به بعد أن أصبح وزيـراً وعالماً فى بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«اكسيـر الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين فى محيط الشـشـترى أحدث انقـلابا فى حيـاته الروحيـة. فقد طبق ابن سـبعين القـاعدة الصوفيـة الخاصة بضرورة تخـليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر ، وهـو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الـشـشـترى بلادا كثيرة حـتي وصل مصـر واعتكف زمنا بالجـامع الأزهر، وتعـرف الى الشـاذليـة، وبلغ اعجـابه بهـا، وإعـجـاب أصحـابهـا به، الى حـد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد اتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششترى الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششترى فى غاية العذوبة وتواشيحه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحة، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية المتعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ ... وقد غلب الشعاعُ على النهارِ

سلافًا قد صفتْ قدمًا وراقت ... أدرْها بالصغار وبالكبارِ

فما عُصرتْ وما جُعلتْ بدَنٍّ ... وما سُبكتْ زجاجتها بنارِ

* * *

ويروى أن الششترى قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، ونعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِى المُتيَّم فى الهوى بجنونه ... خلُّوه يفنى عمره بفُنونه

لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ... ليس السلُّو عن الهوى من دينه

قسمًا بمن ذُكرَ العقيق لأجله ... قسمَ المُحبِّ بحبه ويمينه

مالى سواكم غير أنى تائبٌ ... عن فاترات الحب أو تلوينه

مالى اذا هتف الحمام بأيكة ... أبدًا أحنُّ لشجوه وشجونه

* * *

وإلى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلاً:

شـــــــويخ مـــن أرض مـكـنـاس　　فـى وسـط الأســـــــواق يُـغَـنِّـى
ايـــش عـــلــــىَّ مــــن الـــنـــاس　　وايـــش عــلـــى الـــنـــاس مِـنـــى

ويعتبر الششترى أول من استخدم الزجل فى التصوف. ولقد بلغت شهرة الششترى فى الأزجال الصوفية الى الدرجة التى جعلت ابـن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال» و،قد اعتمدت «الششترية» كطريقة أقرب الى التصوف السنى على اعتمادها على السماع والموشحات التى كان يؤلفها الششترى.

أرى طالـبًـا مـنَّا الزيـادة لا الحُـسـنى　　بفكر رمـى سـهـمًـا فـعـدَّى به عُـدنا
وطَـالبُـنـا مطـلـوبُنـا مـن وجـــــودنـا　　نغـــيب به عـنَّا لدى الـصـــعق إذ عَـنَّا
تركنا حظوظًا من حـضـيـض لُحـوظنا　　من المقصـد الأقصى الى المطلب الأسنى
ولِـم نلـف كُنْـه الكـون الا تـوهمًـــا　　ولـيس بـشيء ثـابت هـكذا ألـفـــينا
فــرفض الســوى فــرضٌ علينـا لأننا　　بملة مــحـو الشـرك والشـك قـد دنَّا
ولكـنه كـيـف الســبـيل لـرفـضــه　　ورافــضـه المرفــوض نحن ومـــا كُنَّا

❋ ❋ ❋

فـيـا قـائـلاً بالوصل والوقــفــة التى　　حـجب بهـا أسـمعْ وأرعـوى مـثلمـا بنا
تقــيـــــدتَ بـالأوهام لمـا تداخـلت　　عليك ونور العــقـل أورثك الســجنا
وهمتَ بأنوار فـــهـــمنا أصـــولهـــا　　ومَنْبــعــهــا من أين كــان فـمـا همنَا
وقَـد تـحـجُـبُ الأنوار لـلعـبـد مـثلمـا　　تُقَّــيـد من اظلام نفسٌ حَـوَت ضِـغْنا
وأى وصـــالٍ فى القـــضــيــة يُـدعَّى　　وأكـــمل مَـنْ فى النـاس لم يدعِ الأمْنا

❋ ❋ ❋

ولـو كـــان ســـرُّ الله يـدرك هكـذا　　لقـال لـنا الجـمـهـور ها نحن مـا خـبنا
فـكم دونـه مـن فــــتـنة وبـليَّـــــة　　وكم مـهـمـة من قـبل ذلك قـد جُـبنا
فـلا تلتـفتْ فـى السيـر غـيراً وكل مـا　　سـوى الله غـيـر فـاتخـذ ذكـره حـصْنا

وكل مقامٍ لا تقم فيه انَّه   حجابٌ فجد السير واستنجد العونا

* * *

ومهما ترى كل المراتب تجتلى   عليك فحُلْ عنها فعن مثلها حُلْنا

وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلبٌ   فلا صورةٌ تُجلى ولا طُرفة تُجنى

وسِرْ نحو أعلام اليمين فأنها   سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا

أمامك هولٌ فاستمع لوصيتى   عِقالٌ من العقل الذى منه قد تبنا

* * *

أباد الورى بالمشكلات وقبلهم   بأوهامه قد أهلك الجنَّ والبنا

محجتنا قطعُ الحجا وهو حِجنَّا   وحجُنَّا تتلوه باء بهـا تُهنا

يبطِّننا عند الصعود لأنَّه   يود لو أنا للصعيد قد أخلدنا

* * *

تلوح لنا الأطوارُ منه ثلاثةٌ   كسراء ومرئىٍّ ورؤية ما قلنا

ويُبْصر عبداً عند طور بقائه   ويرجع مُولى بالفنا وهو لا يفنى

فنحن كدود القزِّ يحصرنا الذى   صنعنا بدفع الحصر سجنا لنا منا

فكم واقفٍ أرْدَى وكم سائرٍ هَدَّى   وكم حكمةٍ أبدى وكم مُملقٍ أغنى

* * *

شكوى وجواب شكوى..

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء

وكيف ينال عهدى الظالمينا

اذا الإيمان ضاع فلا أمان

ولا دينا لمن لم يحيى دينه

« محمد اقبال »

عندما مات الفيسلوف الشاعر المسلم محمد اقبال، الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا، فقد الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل -طيلة حياته- يحاول أن ينشىء الناس نشأة أخرى، ويسن لهم فى الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذى قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب، صوت الانسانية المعذبة فى كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها، الحامل لهمومها، المتاصر لقاضاياها ، والحصن الذى يقيها الهجمات التترية، التى تحاول هدم القيم،واقتلاع المبادىء،من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عنايـ	ـة ربهم يتوكلون
لا خوفَ يفزعهم ولا	هم فِى الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على	فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الافصاح ها	رونا وفى الإيمان موسى

* * *

أنى رأيتُ الخوف فى الـ	ـدنيا عدوًا للعملْ
هو مطفىءٌ نور الرجا	ء وسالبٌ كنز الأملْ
يرمى الارادة بالتزلـ	ـزل والعزيمة بالخورْ
ومن احتواهُ الخوفُ لا	يجني من الروضِ الثمرْ

* * *

المؤمن الوثاب تعظـ	ـصمه من الهول السكينةْ
والخائف الهياب يغرق وهو	فى ظل السفينةْ
تلقاه عند شبابه	هرمًا قد انحطت هواهُ
وتعثرت قدمها قبل	الخطو وارتعشت يداهُ
فى السلم قبل الحرب مسـ	ـلوب الشجاعة حائرٌ

الصبر عنه نافز والسلب منه طائرٌ

* * *

أعداؤكم يخشون سيف يقينكم قبل السيوفْ
ومرامهم أن تسرعوا بالخوف من قبل الحتوفُ
حتى تروا نظراتهم مثل الخناجرِ فى الصدورْ
وهناك يقتطفونكم من أرضكم قطف الزهورْ

* * *

الحقد والكذب الصراح وكل مكرٍ أو دهاءْ
واليأس والجبن المذل وكل غشٍ والتواءْ
تلك الرذائل فى شعوب الأرضِ أبواب الفناءْ
لولا المخاوف ما سمعنا باسمِها تحت السماءْ

* * *

الشرك يصنع من خيوط الخوف أشراك البلاءْ
لولاه لم نسمع بكفرٍ أو نفاقٍ أو رياءْ
المؤمنون لهم من المولى أمان الأولياءْ
بلغوا الكمالَ فهم عن الدنيا العريضةِ أغنياءْ

* * *

ثقةُ الكريم بنفسه تعلوا به فوق الزمنْ
والحزن سمٌ قاتل لا تشربوا سمَ الحزنْ
الموت والحرية الشماء والشرف المسكينْ
هى خيرُ ما نحيا به وهى الغنى للمؤمنين
أما المفضض والمذهب والمفوف والنضيدْ

فلقــــــــــــد تركنــاهـا لـعــــــــ ـــــبـــا د الحِطام وللعـــــبـــــيـــــدْ

* * *

كان الدكتـور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسـرة «برهمية » الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى درس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارنولد»، ثم سـافر الى كمبردج بانجلترا ، ثم «ميـونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتـوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظـهرا بعقـلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كـافح اقبال طويلا ضـد الاستعـمار فى كل مكان، ورفض أن يطلب الاستـقلال للهند فقط وتحـويل الدعوة الانسانية الى مجـرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخـته حتى بلغت مشـارق الأرض ومغاربها بتـحطيم أغلال الاستعـمار الانجليزى، ليبـقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كـان اقبـال رغم انفتـاحه على الـغرب من خـلال دراسته ورحـلاته، واحتكـاكه بثقافات أخـرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنـه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقتـه الخـاصة، التى تفـرد بهـا -فى رأينا- دون سـائر من نزعـوا الى حيـاة الصـوفيـة والزهد.

نعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحـانيا فى طليعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الآلهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى وربانى ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليلنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنبع فـهو ابدا يتجه الى العلا شاعر صوفى رفـيع المستـوى، بلغ فى هذا المجـال منتهي المنتـهى ما جـاء فى كتابـه «ولله المشرق والمغـرب» الذى قسـمه أربعـة أبواب، وأورد فى البـاب الثالث شعـراً صوفـيا ممزوجـا بفلسفة الحياه، واختار له عنوان «الخمر الباقية» مستخدما «الخمر» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذ الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، فى دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتية ورموز الذاتية» وباقى منظوماته التى ضمنها مناح كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض النقد للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء فى كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالاتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية فى شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماته عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب فى الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للاسلام، واظهارهم محاسن الدين المحمدى.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذى جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد فى كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الاسلامى» للعالمين الجليلين «محمد حسن الأعظمى»، و«الصاوى على شعلان، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الاسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة فى الهند أجل الخدمات الى الاسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدى، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليونا من جملة المسلمين فى الهند، وهم سبعون مليونا (فى عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التى تجلت فى الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انسانا أولا، ثم علموه كيف يكون مسلما بعد ذلك.

س: هل أفادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف تبنى مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، ،من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نمو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي ليأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابراز واظهار مزاياهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمـجادهم وأعـمـالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفطنـون الى هذه المقاصـد السـامية فـيجـعلونها تسـلية ويتـخذونها لـهوا ولعـبا، فهى عـبارة من الأسـواق والملاهى والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفـيدنا من طائفة المتصـوفة فى هذا العصر المتـيمز بالحركة والجد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهـم حلقات رحـبية، وأتبـاع عديدون، وهـم يـستطيـعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفـاضلة والمشاركة فى كل الميادين العملية والمفيدة للمجـتمع، وكـثيرا مـا كانوا مصـدرا للنهضـة واليقظة للأمة (نـذكر مثـلاً: فى الحروب الصليبية بمصـر، كيف قاد الامام أحمد البدوى مـريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جـيشـا يجمع بـين الايمان والعمل، واتجـه بهم الى مـعسكرات الأسـرى التى تضم المئات من جنود الشعب المصـري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وببقـية مريديه فى الموقعة، حتى جاء نصـر الله، وعاد الى صومعته معلما وعـابدا، وننقل الى عصرنا القريب فنذكر الامـام السنوسى الأكبـر، وكيف وقف بجيـوشه ضد غـزاة الشمال الافـريقى نحو عـشرين عـاما، حـتى اذا مات خلـفه الامـام البطل الشيخ عـمـر المختـار، ونذكر الزعـيم الصوفى الأمير عبدالكريم الخطابى، وهذه مواقـفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال ، لا تزال ترن فى أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك فى كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد فى كرامات الأولياء، فإن النفوس التى وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال فى تزكـية النفس، وعلى تعبيـر البعض بأنهم يستطيعون أن يرجـعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى الينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور ، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها. كما تطلب من الله عز وجل، فانى اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجـرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكـر الموت، ،الدعـاء لهم، فـلا بأس بذلك، بـل هو مطلوب، وأري فـوق ذلك أن فى زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا؟

ج : الانسـان يحتـاج الى مرشـد الذي يوجهـه الى الطريق الأقوم، وصـاحب القلب النقى يسـتفيد من هداية المرشـد، ممن لهم روح كبـيرة، وفيـهم حرارة وألم، وكـل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، مـن صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س: لم نجد فى الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين؟

ج : مرد هذا الى أن مـجتـمعنا الـحاضـر قد تعـري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقـها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلىء بهم أوربا وفيما وراء البـحار، بـينما لا نجـد لدينا الا القلـيل النادر ، وسبـب هذا أن المجتـمع هناك يقـدر الجهود العلمية والفنية ويفسح الجمال أمام ذوى الخبـرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شـؤن أممهم بالتشـجـيع والتقـدير ، بينما لا يجـد الموهوبون هنا غـير اطفـاء نور الموهبـة، وتعويق سـيـرهم عدا الحـالات، فـمثـلا بوذا الذى ولد فى بيت ملك، وشـاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفـاهية والنعمة، أو مبتلي بالفـاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسـانية، هي آلامـه، فاضطربت روحـه وترك الملك والدولة، ووقف حيـاته للاصلاح، والمثـل الأعلي في حياة العـرب أنهم كانوا أبدا في حـروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمـة، وكان العـرب يشعلون الحرب لأسـباب تافهـة وتستـمر الحرب إلي عـشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعـبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدسـون أشخاصا ويفتخـرون بالشراب والمجون، ولايعرفون للعـدل والفضل قانونا، ينظم معيـشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كـان رحمـة للعـالمين فجـعل هذه المنطقة الـعربيـة منطقة يعـتز بهـا مسلمو العالم أجمع، ويبذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر عن نزعته إلي التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها اولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهي المنتهي.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار اقبال، وهما قصيدتان شهيرتان احداهما بعنوان «شكوي» والأخري «جواب شكوى». وفي القصيدة الأولي يصور اشجانه والآمه ويتضرع اقبال إلي الله يسأله عمن سبب ما آل اليه المسلمون من ضعف وفرقة وتآخر بعدما بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل اقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوي:

«شكوى»:

شكواي أم نجواي في هذا الدجي　　　ونجومُ ليلي حسدي أم عودي

أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما　　　قطعَ الزمانُ طريق أمسي عن غدي

والطير صادحةٌ علي أفنانِها　　　تبكي الربي بأنينِها المتجددِ

قد طالَ تسهيدي وطالَ نشيدُها　　　ومدامعي كالطلِ فِي الغصنِ الندي

فالي متي صمتي كأني زهرةٌ　　　خرساء لم ترزقْ براعةَ منشدِ

* * *

قيثارتي ملئت بأناتِ الجوي　　　لابد للمكبوت من فيضانِ

صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي　　　ليبينَ عنها منطقي ولسانِي

أن ماتعديت القناعةَ والرضا　　　لكنما هي قصة الأشجانِ

أشكو وفي فمي التراب وانما　　　أشكو مصاب الدينِ للديانِ

يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعشْ　　　الا لحمد علاكَ في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهارا بغير شميمِ

والورد في الأكمام مجهول الشذي ... لا يرتجي وردٌ بغير نسيمِ

بل كانت الأيام قبل وجودنا ... ليلاً لظالمها وللمظلومِ

لما أطل محمدٌ زكّتْ الربي ... واخضر في البستان كل هشمِ

وأذاعت الفردوس مكنون الذي ... فإذا الوري في نضرةٍ ونعيمِ

* * *

مَنْ قام يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحدَ القهارا

عبدوا تماثيل الصخورِ وقدسوا ... من دونك الأحجارَ والأشجارا

عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً ... لم يبلغوا من هديها أنوارا

هل أعلن التوحيد داعٍ قبلنا ... وهدي الشعوب إليك والأنظارا

كنا نقدم للسيوفِ صدورَنَا ... لم نخش يوما غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الـ ... ـروماِن مدرسة وكان الملكُ في ساسانِ

لم تغن عنهم قوةٌ أو ثروة ... في المالِ أو في العالم والعرفانِ

وبكل أرضٍ سامري ماكرٌ ... يكفي اليهودَ مؤونةُ الشيطانِ

والحكمة الأولي جرت وثنيةً ... في الصينِ أو في الهندِ أو تورانِ

نحن الذين بنورِ وحيكَ أوضحوا ... نهجَ الهدي ومعالمَ الايمانِ

* * *

مَنْ ذا الذي رفع السيوفَ ليرفعَ اسمـ ... ـكَ فوق هامات النجوم منارا

كنا جبالا في الجبال وربما ... سرنا علي موج البحار بحارا

بمعابد الأفرنج كان أذانُنَا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتِنا والأرض تقذف نارا

وكـأن ظلَّ السيفِ ظلَّ حديقةٍ خضراء تنبت حولنا الأزهارا

* * *

لم تخش طاغوتا يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارا لا اله سوى الذي صنع الوجودَ وقدر الأقدارا
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنمًا وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهبٍ فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازَها كنزًا وصاغ الحلي والدينارا

* * *

كم زلزل الصخر الأشم فما وهي من بأسنا عزم ولا ايمانُ
لو أن آساد العرين تفزعت لم يلقْ غير ثباتنا الميدانُ
وكأن نيرانَ المدافعِ في صدور المؤمنين الروح والريحانُ
توحيدك الأعلي جعلنا نقشه نوراً تضئ بصبحه الأزمانُ
فغدت صدور المؤمنين مصاحفًا في الكون مسطوراً بها القرآنُ

* * *

مَنْ غيرنا هدم التماثيل التي كانت تقدسها جهالات الوري؟
حتي هوت صور المعابد سجدا لجلال من خلق الوجود صورا
ومَنْ الأهلي حملوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبرا؟
أمن رمي نارَ المجوسِ فأطفئت وأبانَ وجه الحقِ أبلج نيرا؟
ومن الذي بذلَ الحياةَ رخيصةً ورأي رضاك أعز شيء فاشتري؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم ... دنيا الخليقة من تهاويل الكري
نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم ... والحرب تسقي الأرض جاما أحمرا
جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا ... في مسمع الروح الأمين فكبرا
محمود مثل أياز[1] قام كلاهما ... لك بالخشوع مصلياً مستغفرا
العبد والمولي علي قدم التقي ... سجداً لوجهك خاشعين علي الثري

* * *

بلغتْ نهايةَ كل أرض خيلُنَا ... وكأن أبحرها رمال البيدِ
في محفل الأكوان كان هلالُنا ... بالنصر أوضحَ من هلالِ العيدِ
في كل موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تعلن آيةَ التوحيدِ
أم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في أسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيال حرياتها ... من بعد أصفادٍ وذلِ قيودِ

* * *

رحماك رب هل بغير جباهنا ... عرف السجودَ ببيتُك المعمورِ؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفًا ... يحوي جلالَ كتابَك المسطورِ
إنْ لم يكن هذا وفاء صادقاً ... فالخلق في الدنيا بغير شعورِ
ملأ الشعوب جناتها وعصاتها ... من ملحد عاتٍ ومن مغرورِ
فاذا السحاب جري سقاهم غيثةً ... واختصنا بصواعقِ التدميرِ

* * *

قد هبت الأصنامُ من بعد البلي ... واستيقظت من قبل نفخِ الصورِ

---

(١) السلطان محمود الغزنوي واياز خادمه.

والكعبة العليا تواري أهلَهَا ... فكأنهم موتي لغيرِ نشورِ
وقوافلُ الصحراء ضل حداتُها ... وغَدتْ منازلُها ظلالَ قبورِ
أنا ماحسدت الكافرينَ وقد غدوا ... في أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بل محنتي ألا أري في أمتي ... عملاً تقدمُه صداق الحورِ

* * *

لك في البريةِ حكمةٌ ومشيئةٌ ... أعيتْ مذاهبها أولي الألبابِ
إنْ شئت أجريت الصحاري أنهراً ... أو شئت فالأنهارُ موجِ سرابِ
ماذا دهي الاسلامُ في أبنائه ... حتي أنطووا في محنةٍ وعذابِ
فشراؤُهم فقرٌ ودولةُ مجدِهِم ... في الأرضِ نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا ... عن ذنبه في الدهرِ يومَ عقابِ

* * *

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم ... للموتِ بين الذلِ والأملاقِ
الدينُ يحيا في سعادة أهله ... والكأسُ لاتبقي بغيرِ الساقي
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ ... أنوارَ بين محافلِ العشاقِ
سكبوا الليالي في أنينِ دموعِهم ... وتوضأوا بمدامعَ الأشواقِ
والشمس كانت من ضياء وجوهِهِم ... تهدي الصباحَ طلائعُ الأشواقِ

* * *

كيف انطوت أيامهم وهم الألي ... نشروا الهدي وعلوا مكان الفرقدِ
هجروا الديارَ فأين أزمع ركبهم ... من يهتدي للقومِ أو من يقتدي
ياقلبُ حسبك لن تلمْ بطيفهم ... الا علي مصباحِ وجهِ محمدِ

فـــازوا من الـدنيـــا بمجـــدٍ خـــالدٍ ولهـم خلـودُ الفـــوزِ يـومَ الموعـــدِ
يارب ألـهـــمنا الرشـــادَ فـــمـــا لـنا في الكـونِ غـيـــرك من ولـيٍ مــرشـدِ

* * *

مــازال قـــيس والغـــرام كـــعـــهـــدِه وربوع لـيلي فـي ربيعِ جـــمـــالِهـــا
وهضـــاب نجـدٍ في مـــراعـيــهـا المهــا وظبــاؤهـا الخـفـرات مـلءُ جبـالِهـا
والعـــشـق فـيـــاضٌ وأمــة أحـــمـــد يتـــحـــفـز التـاريخُ لا ســتـقـبـالِهـا
لو حـــاولت فـــوق الســـمـــاء مكـانة رفت علي شـمـس الضـحي بهـــلالهـا
مـــابالـهـــا تلقـي الجـــدود عــــوائرا وتصــــدهـا الأيامُ عـن آمـــالِهـــا

* * *

هجـــر الحـبـيـب رمي الأحـبـة بالنوي وأصــــابـهم بتـــصـــرمِ الآمـــالِ
لم يبقَ في الأرواح غـــيـــر بقـــيـــةٍ رُحــــمـــاكَ يامــرآةَ كلِ جـــمـــالِ
لو قـــد مللنا العـــشقَ كـــان سَـبـيـلُنا أن نســـتكينَ إلـي هوي وضـــلالِ
أو نصـنع الأصنامَ ثـم نبـيـــعَـــهَـــا حـــاشـــا الموحـــد أن يُذَلَّ لمـالِ
أيام سـليـــمـــان بنا مـــوصـــولةٌ وتـــقـــي أدريـس فـــي أذانِ بـــلالِ

* * *

يا طـيب عـــهـــدٍ كنت فـيـــه منارنا فـــبـــعـــثـت نورَ الحقِ مـن فــارانِ
وأســـرت فـيـــه العـــاشـقين بلمحـــةٍ وســقـــيـــتـهـم راحـــا بغـيـــر دنانِ
أحـــرقت فـيـــه قلوبَهم بتـوقـــد الإ يمـان لابتـلـهـبِ الـنـيــــــرانِ
لم نـبقَ نـحن ولا القـلوب كـــأنهـــا لم تـتـحـظَ من نارِ الهـوي بدخـــانِ
ان لم يـنر وجـــه الحـــبـيب بوصلِه فـــمـكان حـــزن الـقلبِ كلَ مـكانِ

* * *

يافرحَة الأيام حين نري بها ... روضَ التجلي وارفَ الأغصان

ويعود محفلنا بحسنك مسفراً ... كالصبح في اشراقه الفينان

قد هاج حزني أن أري أعداءنَا ... بين الطلا والظل والألحان

ونعالج الأنفاسَ نحن ونصطلي ... في الفقرِ حين القوم في بستان

أشرقْ بنوركَ وأبعث البرق القديـ ... ـم بومضة لفراشك الظمآن

* * *

أشواقنا نحو الحجاز تطلعتْ ... كحنين مغترب إلي الأوطان

إن الطيورَ وإنْ قصَصتَ جناحَها ... تسمو بفطرتها إلي الطيران

قيثارتي مكبوتةٌ ونشيدُهَا ... قد ملَ من صمت ومن كتمان

واللحنُ في الأوتارِ يرجو عازفًا ... ليبوحَ من أسرارِه بمعان

والطورُ يرتقبُ التجلي صارخًا ... بهوي المشوقِ ولهفة الحيران

أكبادنُا احترقت بأنات الجوي ... ودماؤنا نهر الدموعِ القاني

والعطرُ فاض من الخمائلِ والربي ... وكأنه شكوي بغيرِ لسان

أو ليس من هول القيامة أن يكو ... ن الزهر تمامًا علي البستان

النمل لايخشي سليمانا إذا ... حرست قراه عنايةُ الرحمن

أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الإ ... سلام فوق هياكل الأوثان

* * *

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت ... عنما قماريها بكل مكان

وتعرت الأشجار من حللِ الربي ... وطيورُها فرت إلي الوديان

يارب الا بلبلاً لم ينتظرْ ... وحَي الربيع ولاصبا نيسان

ألحانه بحر جري متلاطمًا ... فكأنه الحاكي عن الطوفان

يالـيت قــومي يســمـعــون شكـايةً — هي في ضـمـيـري صرخُـة الوجـدانِ

* * *

ان الجــواهـر حــيـرت مــرآة هـــ — ـذا القـلبِ فـهـو علي شـفـا بركـانِ

أســمـعــهـمــوا يارب مـا ألـهـمـتني — وأعــــدْ الـيــــهمْ يـقـظةَ الإيمـانِ

وأذقــهم الخــمــرَ القــديمة إنهــا — عينُ الـيــقـين وكـــوثُر الرضــوانِ

أنا أعــجــمـي الدن لكـن خـمــرتي — صنع الحـجــاز وكــرمــهـا الـفـينانِ

ان كـــــان لي نـغـم الهـنود ولحـنهـم — لكـن هذا الـصـــوت من عـــدنـانِ

* * *

«جواب شكوى»:

كـــلامُ الـروح للأرواح يســـري — وتـدركـــــه الـقـلـوبُ بـلا عـنـاءِ

هتـــــفت بـه فـطـارَ بـلا جنـاحٍ — وشقَ أنـيُنـه صــدرَ الفــضــاءِ

ومــــعــــدنه ترابي ولـكـنْ — جـرت في لـفظه لـغـــةَ الســمــاءِ

لقــد فـاضـت دمــوع الـعـشقِ مني — حــديـثًـــا كـــان علـوي النداءِ

فـــحلق فـي ربي الأفـــلاكِ حـــتي — أهـاجَ الـعــــالـمَ الأعلـي بـكـائِي

* * *

تحـــاورت النجُــوم وقلن صــوت — بقــرب العــرشِ مــوصــولَ الدعــاءِ

وجـــاوبت المجــرة علي طيــفًـــا — ســري بـين الكواكـبِ في خـــفــاءِ

وقـــال الـبـــدرُ هـذا قلـبٌ شــاكٍ — يـواصل شـــدوه عـنـد المســـاءِ

ولم يعــرفْ ســوي رضــوان صـوتي — ومـــا أحــــراه عنـدي بالـوفـــاءِ

ألـم أكُ قـــبـل في جنـاتِ عـــدنٍ — فــأخـــرجني إلـي حين قــضـــائِي

* * *

وقيلَ هو ابنُ ادمَ في غرورٍ ... تجاوز قدرُه دون ارعواءِ

لقد سجدتْ ملائكةٌ كرام ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ

يظن العلمُ في كيفٍ وكمٍ ... وسرُّ العجزِ عنه في انطواءِ

وملءُ كؤوسه دمعٌ وشكوى ... وفي أنغامه صوتُ الرجاءِ

فيا هذا لقد أبلغت شيئًا ... وان أكثرت فيه من المراءِ

* * *

عطايانا سحائب مرسلات ... ولكن ما وجدنا السائلينَا

وكل طريقنا نورٌ ونورٌ ... ولكن ما رأينا السالكينَا

ولم نجدْ الجواهرَ قابلات ... ضياء الوحي والنور المبينَا

وكان تراب آدم غير هذا ... وان يكَ أصله ماء وطينَا

ولو صدقوا وما في الأرض نهر ... لأجرينا السماء لهم عيونَا

* * *

وأخضعنا لملكهم الثريا ... وشيدنا النجومَ لهم حصونا

ولكن ألحدوا في خير دينٍ ... بني في الشمسِ ملك الأولينَا

تراثُ محمدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مهملينَا

تولي هادمو الأصنام قدما ... فعاد لها أولئك يصنعونا

أباهم كان إبراهيم لكنْ ... أري أمثال آزرَ في البنينَا

* * *

وفي أسلافكم كانت مزايا ... بكل فمٍ لذكراها نشيدُ

تضوع شقائق الصحراء عطرًا ... برياها وتبتسم الورودُ...

فهل بقيت محاسنهم لديكم ... فيجعلُ في دلالكُم الصدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناء ... فلم يكتب لغيرهم الخلودُ
وكوثر أحمد منكم قريبُ ... ولكن شوقكم عنه بعيدُ

* * *

وكم لاحَ الصباحُ سناً وبشري ... وأذنت القماري والطيورُ
وكبرَتْ الخمائل في رباها ... مصلية فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقيلُ ... كأنَ الصبحَ لم يدركه نورُ
وأضحي الصوم في رمضان قيداً ... فليس لكم به عزم صبورُ
تمدن عصُركم جمع المزايا ... وليس بغائبٍ الا الضمير

* * *

لقد ذهب الوفُاء فلا وفاءَ ... وكيف ينالُ عهدي الظالمينَا
إذا الايمانُ ضاعَ فلا أمانَ ... ولا دنيا لمن لم يحيي دينَا
ومن رضي الحياةَ بغير دينٍ ... فقد جعلَ الفناءَ لها قرينَا
وفي التوحيد للهمِ اتحادٌ ... ولن تبنوا العلا متفرقينَا
تساندت الكواكبُ فاستقرتْ ... ولولا الجاذبية ما بقينَ

* * *

غدوتم في الديار بلا ديارَ ... وأنتم كالطيورِ بلا وكورِ
وكل صواعق الدنيا سهام ... لبيد ركم وأنتم في غرورِ
أهذا الفقر في علمٍ ومالٍ ... وأنتم في القطيعةِ والنفورِ
وبيع مقابر الأجدادِ أضحي ... لدي الأحفادِ مدعاة الظهورِ

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا إذا سمعوا بتجار القبور

* * *

مَنْ المتقدمون إلي المعالي علي نهج الهداية والصواب

ومَنْ جباهاتهم أنوار بيتي وفي أخلاقهم يُتْلَي كتابي

أما كانوا جدودكُمُ الأوالي بناةَ المجد والفنِ العجابِ

وليسَ لكم من الماضي تراثٌ سوي شكوي اللغوب والاكتئاب

ومن يكُ يومه في العيش يأسًا فما غده سوي يومِ العذابِ

* * *

أتشكو أن تري الأقوامَ فازوا بمجد لايراه النائمونَا

مشوا بهدي أوائلكُمْ وجدوا وضيعتم تراثَ الأولينَا

أيحرَمُ عاملٌ ورد المعالي ويسعدُ بالرقي الخاملونَا

ألَيسَ من العدالةِ أنَ أرضي يكون حصادُها للزارعينَا

تجلي النورٌ فوق الطورِ باق فهل بقي الكليمُ بطورِ سينا؟

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحدكم علي نهج الوئام

ومصحفكم وقبلتكم جميعًا منار للأخوة والسلامِ

وفوق الكل رحمنٌ رحيمُ الهٌ واحدٌ ربُ الأنامِ

فما لنهار الفتكم تولي وأمسيتم حياري في الظلامَ

وحسن اللؤلؤُ المنكونُ رهنٌ بصوغِ العقدِ في حسنِ النِظامَ

* * *

وكـيـف تغـيـرتْ بكُم الليـالي — وكـيـف تـفـرقتْ بكمُ الأمـانِي

تركـتم دينَ أحـمـد ثم عُـدتمْ — ضـحـايا للهـوي أو لـلهـوانِ

رقي الشـعب قـد أضحي لديكم — تقـرره صـلاحـيـةُ الزمـان

وكـيـف تقـاسُ أوهامٌ ولـغـوٌ — بحكمـة منزِل السـبع المثـانيَ

أري نـاراً قـد انقلبت رمـاداً — سـوي ظلِ مريضٍ من دخـانِ

* * *

أري الفـقـراء عـبـاداً تقـاة — قـيـامـا في المسـاجدِ راكـعـينَا

هـم الأبـرار في صـومٍ وفطرٍ — وبالأسـحـارِهم يسـتـغـفـرونَا

وليس لكم سـوي الفـقـراءِ سـترٌ — يواري عن عـيـوبكم العـيـونَا

أضلت أغنيـاءكم الملاهي — فـهم في ريبِـهـم يتـرددونَـا

وأهلُ الفـقـرِ مـازالوا كنوزاً — لـديِن الـلـه رب العـالمين

* * *

أري التـفكَيـر أدركُـه خـمـولٌ — ولم تبقْ العـزائمُ في اشـتـعـال

وأصبح وعظُكم من غـيـر سـحـرِ — ولانـور يُـطِـلُ مـن المـقـال

وعـند الناسِ فلسـفـةٌ وفكر — ولكن أين تـلقين (الغـزالي)

وجـلـجلـة الآذان بـكـلِ أرضٍ — ولكن أين صـوت من بلال

منـائركم علت في كل حي — ومسـجدكم من العـبـاد خـالي

* * *

فـأين أئمـة وجنود صـدقٍ — تهـاب شـبـاةَ عـزمِـهم الحـرابُ

إذا صنعـوا فـصنعـهم المعـالي — وإن قـالوا فـقـولهم الصـوابُ

مـــــــرادهـم الاله فـــــــلا ريـاءَ ونهـــجـهـم اليـقـين فـلا ارتيـابُ
لأمــــتــــهم ولـلأوطان عـــاشـــوا فـليس لـم إلـي الـدنـيـــــا طـلاب
كـــمـــثل الكـأس تبـصــرها دهاقـــا وليس لأجلـهــــا صُنِعَ الشـــرابُ

* * *

جـــهــــاد المؤمنين لـهم حـــيـــاةٌ ألا أن الحــــيــــاةَ هـي الجـــهــــادُ
عـــقـــائدهم ســواعـــد نـاطقــات وبالأعـــمــــال يثـبت الاعـــتــقـــادُ
وخـــوفُ الموتِ للأحـــيــاء قـبـــرٌ وخـــــوف الـله لـلأحــــرار زادُ
أري مـــيــــراثَهم أضـــحي لديكُم مــضـاعًـا حـيث قـد ضـاعَ الرشـادُ
ولـيس لـوارثٍ في الخـــيــــر حظٌ إذا لـم يحــــفَـظ الأرثَ اتحـــــادُ

* * *

لأي مـــآثر الـقـــوم انتـــســـبــتم؟ لتـكـتـــســـبـوا فـخـــار المسلمـــينَا
فـــأين مـــقــامُ ذي النوريـنِ منـكم ودولـة عـــــــزة دنيـــــــا ودينَـا
وفـــــــقــــــرُ علـي الأواب هـلا ربحــــتُم فـيـــــه كنزَ الـفـاتحـــينَا
أقـــمـــتم فـي الذنـوبِ وفي الخطـايا وتغـــتـــابون حــتـي الصـــالحــينَا
وهم ســتـروا عـــيـوب الخلق فـضــلا وان كــــانـوا أبـر المتـــقـــينَـا

* * *

أريكة قـــيـــصــر وســرير كــســري قــد احــتـمـيــا بملكهم الـعـمـيم
وأنتـم تطـمــحـــون إلـي الثـــريا فـــــلا عــــزم ولا قـلـب سليم
تضـيـــعـــون الأخـاءَ وهم أقـــامـوا صـــروحَ أخــائهم فـوقَ الـنجـــوم
طلبـــتم زهرةَ الـدنيـــا وعــــا بلا زهـر يضـــوع ولا شـــمـــيم

وكـان لديهم البـستـان محـضًـا ... وهم أصـحـابُ جنات النعـيمِ

* * *

يعـيـد الكـون قـصـتـهم حـديثًـا ... وينشئ من حـديثـهم الفنونـا

فكـم نزحـوا عن الأفكارِ شـوقًـا ... إلي التـحليقِ فـوقَ العـالمينا

وبأس شـبـابكم أدمي خطـاهم ... فـظنوا فـيـه بالـدين الظنونَـا

هي المدينـةُ الحـمـقـاء ألـقت ... بـهم حـولَ المذاهـبِ حـائـرينَـا

لـقـد صـنعت لهم صنم الملاهـي ... لتـحـجبَ عنهم الحـرَمَ الأمـينَـا

* * *

لقـد سئمَ الهـوي في البيـدِ قـيسٌ ... ومـل من الشكـايـةِ والـعـذابِ

يحـاول أن يـبـاحَ العـشـقُ حـتي ... يري لـيـلاه وهـي بلاحـجـابِ

يريـد سـفَـور وجـه الحـسنِ لما ... رأي وجـهَ وجـهَ الغـرامِ بلا نقـابِ

فـهـذا العـهـدُ أحـرقَ كل غـرسٍ ... مـن المـاضـي وأغـلـقَ كـلَ بـابِ

لقـد أفنت صـواعـقـه المغـاني ... وعـاثت في الجـبـال وفي الـهـضـابِ

* * *

هـي النـارُ الجـديدة لـيس يـلقـي ... لهـا حطبٌ سوي المجـد القـديمِ

خـذوا ايمـان إبـراهـيم تـنبـت ... لكـم في النـارِ روضـات النعـيمِ

ويذكـو من دم الـشـهـداء وردٌ ... سـني العطـر قـدسي النسـيمِ

ويـلمعُ في سـمـاءِ الكونِ لـونٌ ... من العناب مـخـضـوب الأديمِ

فـلا تفـزع إذا المرجـانُ أضـحي ... عـقـودًا لـلبـراعـم والكـرومِ

* * *

فـكـم زالـتْ ريـاضُ مـن ربـاهـا ... وكم بـادتْ نخـيل فـي البـوادي

ولكن نخلةَ الإسلامِ تنمو … على مرِ العواصفِ والعوادي
ومجدك في حمي الإسلام باقٍ … بقاء الشمسِ والسبعِ الشدادِ
وأنك يوسفٌ في أي مصرٍ … يري كنعانه كلَ البلادِ
تسير بك القوافلُ مسرعاتٍ … بلا جرسٍ ولا ترجيع حادي

* * *

ضياؤك مشرق في كل أرضٍ … لأنك غير محدود المكانِ
بغت أمم التتار فأدركتها … من الايمانِ عاقبةُ الأمانِ
وأصبح عابد والأصنامِ قدما … حماةَ الحجرِ والركن اليمانِ
فلا تجزع فهذا العصر ليل … وأنت النجم يشرق كل آنِ
ولاتخش العواصفَ فيه وانهضْ … بشعلتك المضيئةِ في الزمانِ

* * *

أعد من مشرق التوحيد نوراً … يتمُ به اتحادُ العالمينا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي … فكيف تعيشُ محتبساً دفينا
وأنت نسيمُه فاحملْ شذاه … ولاتحمل غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمانِ شمسًا … وضع من ذروة جبلاً حصينا
وكُنْ في قمةِ الطوفان موجًا … ومزنا يحطرُ الغيثَ الهتونا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا … أُقيمتْ خيمةُ الفلكِ المنيرِ
تلألأ في الرياض وفي الصحاري … وفوق الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونبضُ الكونِ منه مستمدٌ … حرارتُه على مرِ العصورِ
ومن مراكش يغزو صداه … ربوع الصين بالصوت الجهيرِ
وما مشكاة هذا النور الا … ضمير المسلم الحر الغيورِ

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع   لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسان عين الكون وأشهدْ   مقامك عالياً فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحتْ   على الأعلام أنوار الهلال
نداؤك في العناصر مستجاب   إذا دوي بصوت من بلال
وعقلك في الخطوب أجلَ درع   وعشْقُكَ خير سيفٍ للنضال

* * *

خلافةَ هذه الأرض استقرتْ   بمجدك وهو للدنيا سماءُ
وفي تكبيرك القدسي يبدو   صغيراً كل ماضمَ الفضاءُ
فيا من هب للإسلام يدعو   وأيقظَ صدق غيرته الوفاءُ
سترفع قدرَك الأقدارُ حتي   تشاهد أن ساعدَكَ القضاءُ
وقيل لك احتكم دنيا وأخري   وشأنُكَ والخلود كما تشاءُ

* * *

كل المنى..

أنرتَ الهدى للمهتدين ولم يكنْ

من النورِ في أيديهم عشر معشارِ

فنلنِي بعفوٍ منكَ أحيى بقربهِ

وغَشِّ بيسرٍ منك فقري واعساري

« ذا النون المصري »

من بين أشهر رجال الصوفية فى الإسلام أبو الفائض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وان ذا النون كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل ان ذا النون اعتاد أن يطوف بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها، وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر، ويقال إن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الي التضلع فى التنسك وكبح جماح النفس.

من بين ما روى عن ذى النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته فى قارب بالنيل فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعيدين احنقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم على هؤلاء القوم السعداء فى هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة فى الحياة الأخرى»، الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا فى توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصحبه «ان المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئا من أحد سواه. أنا أعبده وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمعن فى كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠ -٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت فى أول اسفارى علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت فى ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفار« حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدا طريدا. لقد حصلت العلم فى المرة الأولى والتوبة وهى مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفى المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة، وفى المرة الثالثة وصلت الى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها لم يتفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهدا من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه فى أواخر أيامه وأرسل به الى بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الى مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون فى أول الأمر متنسكا متقشفا، زهد العالم فى الوحدة والعزلة حيث تدرب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر الى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفيا عارفا بالله، وهو يكاد أن يكون صوفيا تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التى تجتازها الروح فى سبيلها الى الوصول الي الله والعثور عليه.

ولذى النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة ايمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليكَ صبابتى ... ولا رويتُ من صدقِ حبك أوطارى

مناى المنى كلُّ المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند أقصارى

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغايةُ رغبتى ... ومضعُ شكواى ومكنونُ إضمارى

تحملَ قلبى فيك ما لا أبثُه ... وإن طالَ سُقمى فيكَ أو طالَ إضرارى

* * *

وبين ضلوعى منكَ ما لولاك قد بدا ولم يبدْ باديه لأهلىِ ولا جارى

وبى منك فى الأحشاءِ داءٌ مخامرٌ فقد هدمنى الركن وأثبت أسرارى

* * *

ألستَ دليلَ الركبِ إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هارى

أنرتْ الهدى للمهتدين ولم يكنْ من النورِ فى أيديهمِ عشر معشارى

* * *

فنلنى بعفوٍ منك أحيى بقربهِ وغّشَ بيسرٍ منك فقرى» وإعسارى

* * *

مالى سواك..

مـــــــالى ســـــــواك أغـــــــثنى

وهـل ســـــــواك نصـــــــيـــــــر

ولـى إلـيـك شـــــــفـــــــيع

بـدر المســـــــاء المـنـيـــــــر

« أحمد الحلوانى »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل الحلوانى الشافعى أحد الذين يمثلون السمو الروحى فى الأدب الصوفى. وقد ولد الحلوانى فى احدى قرى محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ القرآن صغيرًا، ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين واللغة، وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى والشبراوى.

وقد ترك الحلواني تراثًا شعريًا صوفيًا رائعًا ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، وبعد مماته فى سنة ١٣٠٨ هـ.

وسنقدم هنا لأحمد الحلوانى ابتهالاً صوفيا شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالى سواك».

استغفر الله ربّى	فالله رب غفورٌ
مما جناه جَنَاني	أو اللسان العَثُور
أو الجوارحُ منّى	فإنها قد تثورُ
أو ظاهرٌ ليس يَخفى	أو باطنٌ مستورُ

* * *

أستغفر الله مما	قد قلتُه وهو زورٌ
ومن تَناس بناس	عمّن هو المذكورُ
ومن خلافُ أمورٌ	أنا بها مأمورٌ
أستغفر الله مماً	جرَى به المقدورُ
من كل أمر معيب	قد كنتُ فيه أمورُ

* * *

لم يُرض ربّى وقلبى	بكسْبه مسرورُ

إن سرتُ يوماً إليه أطير حين أسيرُ
وعند أول جزء منهُ يجيء الأخيرُ
وإن توخيتُ خيراً صرفاً فكم أستخيرُ
وإن تهممتُ يومًا إليه جاء الفُتورُ

* * *

وللتقدم أنوى فيعرضُ التأخيرُ
هبْني تقدَمتُ، ماذا يُجدى وقلبي نفورُ
وهبْه غيرَ نفورِ هل فيه ثمَّ حضورُ
عدمتهُ من فؤادٍ عند الصلاة يطيرُ

* * *

أنوى فيذهبُ لبِّى وفى السلام يحورُ
أظلُّ أحسبُ فيها وما تحتويه الدُّهورُ
كأنّنى بحسابى مُسوِّكلٌ أو أجيرُ
فلو ترانى فيها لقلْتَ: ذا مبهورُ
ففى العبادة طرْفى ولو بصيراً ضريرُ
وفى الذنوبِ فؤادى على عَماهُ بصيرُ

* * *

يا ويلنا من ذنوبٍ فُجورُها مفجورٌ
ومن خُطاىَ اللواتى إلى الخطى تستطيرُ
وآه من كُلِّ إثمٍ عليه يُطوى الضميرُ
ومن مقاصد سوءٍ جرى به التعبيرُ

* * *

شيءٌ ومنْ، لستُ أدرى؟ فذاك شيءٌ كثيرُ

قبائحٌ كنتُ فيها ... أسْرى وطور أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبي ... من أجلها مفطورُ
سُررتُ منها زماناً ... وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها ... كتابي المسطورُ

* * *

ماذا أقول لربيٍّ ... إذا بدا التحريرُ
يارب أنت رحيمٌ ... وبالسَّماح جديرُ
يا ربّ أنت عفوٌّ ... وأنت ربّ قديرُ
يارب إني حقيرٌ ... جدًا وأنت الكبيرُ

* * *

وشأنُ من جلَّ يغضي ... إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ ... من ربّه يا مُجيرُ
وما أريد احتجاجاً ... عليْكَ بل أستجيرُ
أجرْ عبيدَكَ يا منْ ... سواه ليس يُجيرُ

* * *

مالي سواكَ أغثني ... وهل سواكَ نصيرُ
ولي إليك شفيعٌ ... بدرُ السماءِ المنيرُ
غوثُ الأنام المرجّى ... إذا المساء تمورُ
به توسَّلتُ فاجبر ... كَسْري، فإني كسيرُ
واسكُب عليه التحايا ... ما فاض منه النورُ

* * *

مجاهدة النفس..

وذلك لأن الناسَ قد آثرُوا الهوى
على الحقِ سراً ثم جهراً علانيَا
فهذا زمانُ الشرِ فاحذرْ سبيلَه
فإن سبيل الشرِ يروى المهاويا

« الأنطاكي »

هذا الصوفى الكبير أبو عبدالله أحمد بن أحمد بن عاصم الأنطاكى المتوفى سنة ٢٣٩ هـ يطلق عليه اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كلامه دوما على المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس. والأنطاكى يرى أن الصوفية هم "أهل الصدق"، ومجالستهم لذلك تكون بـ "الصدق". وعلم التصوف -كما يراه- هو "علم معاملات القلوب".

ويقول الأنطاكى: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون فى مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه حياته، ومجاهداته الروحية ، وحقيقة تصوفه.

ولعل هذه القصيدة الرائعة والتى يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على ذلك.

ألم ترى أن النفس يرديك شرُها ... وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا

فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً ... وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا

هلمَّ إليّ الآن إن كنت طالبًا ... سبيل هدى أو كنت للحق باغيا

فعندى من الأبناء علمٌ مجربٌ ... فنه بالهام ومنه سماعيا

* * *

أخبرُ أخبازاً تقادمَ عهدُها ... وكيف بدا الإسلام إذ كان باديًا

وكيف نما حتى استتم كمالهُ ... وكيف ذوى اذ صار كالثوب باليا

ومن بعدِ ذا عندى من العلم جوهرٌ ... يفيدُك علمًا إن وعيت كلاميا

وعملا غزيراً جالى الرين والصدى ... عن القلب حتى يترك القلب صافيا

* * *

فأصبحتُ بالتوفيق للحق واضحًا ... وذاك بالهام من الله ماضيا

لأنى فى دهر تغرب وصفه ... فصار غريبا موحش الأهل قاسيا

فأحوج ما كنا إلى وصف ديننا ... ووصف دلالات العقول زمانيا

عجائب من خير وشر كليهما ... فان كنت سماعا بدا للقلب واعيا

فقد ندب الأسلام أحمد ندبةً ... كما ندب الأموات ذو الشجو شاجيا

* * *

فأول ما أبدأ بالحمد للذي ... يراني للاسلام اذ كان باريا

وصيرنى إذا شاء من نسل آدم ... ولم أكُ شيطانا من الجن عاتيا

ولا شاء من إبليس صير مخرجي ... فكنت مضلاً جاحدَ الحقِ باغيا

ولكنه كان باللطفِ سابقا ... وإذا لم أكن حيًا على الأرض ماشيا

* * *

وصيرنى من بعد فى دين أحمدٍ ... وعلمنى ما غاب عنه سؤاليا

وفهمنى نوراً وحكمة ... فشكرى له فى الشاكرين موازيا

فمن أجلِ ذا أرجو إذ كان غافراً ... ومن أجل ذا قد صح منى رجائيا

ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافني ولكن بلطف منه كان ابتدائيا

* * *

فلا كنت ذا عقل لما قد رجوته لقد كنتُ ذا خوف وشكرى محاذيا

ولو كنت أرجوه لحسن ضيعه شكرت فصح الآن منى حيائيا

فشكرى له إذا صيرت بالحق عالما وللشر وصافا وللخير واصيا

ومن بعد ذا وصفى لنفسي وطبعها ووصفى غيرى إذ عرفت ابتدائيا

* * *

فهذا من الأبناء وصف غرائب. فمن كان وصفى لكان بحاليا

فكيف به إذا كان بالحق عالما فهيهات لا ينجيه إلا الفافيا

وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى على الحق سر ثم جهراً علانيا

فهذا زمان الشر فاحذر سبيله فإن سبيل الشرِ يردى المهاويا

* * *

البردة..

كـــــيف ترقى رقـــــيك الأنبـــــيــــــاء

يا ســـمـــــاء مـــا طـاولتـــهـــا ســمـــاء

« البوصيرى »

البوصيرى هو امام المادحين، وأحد أئمة الصوفية المعدودين، الذين خلد ذكرهم، وخاصة بسبب افاضته، واجادته فى مدح الرسول الأعظم، وتقديمه للعالم الاسلامي همزيته الخالدة "البردة". وقد سمى الامام الجليل أبو عبدا، شرف الدين محمد بن سعيد المغربى الأصل بالبوصيرى نسبة إلى "بوصير قوريدس" من قرى بنى سويف حيث نشأ هناك وأمضى جزءا من عمره إلى أن أقام بالاسكندرية آخر حياته حتى مات ودفن فى قبره الذي شيد عليه مسجده المسمى باسمه.

وقد كان البوصيرى طيلة حياته التي امتدت ما يقرب من تسعين عاما (٦٠٨ - ٦٩٦هـ) أحد المدافعين عن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليه، وخاصة ممن أنكروا نبوة الرسول من غير المسلمين، حيث ناقشهم، وجادلهم وأقام الحجة عليهم، ويظهر ذلك فى مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصوفية ومنها كتاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البوصيرى، كان من أصحاب الهمة العالية، كما تذكر أنه تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم في الاسكندرية، وانقطع الي التصوف، وما اليه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد سيدى أبى العباس المرسى وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همزية البوصيرى النورانية«البردة» التى لم تزل تمثل درة على جبين الشعر العربى قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدخ الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهدا لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصيرى كان قد بدأ فى نظم القصيدة أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله يمر بيده الكريمة على جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم «البرأة»، وقد جازاه الرسول بأن خلع عليه بردته، ولذا سميت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صيت هذه القصيدة حتي بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتي يومنا هذا في ذكر مالها من كرامات، حتي صاروا ينشدونها فى مجالسهم، واحتفالاتهم الدينية تشفعا بالنبي ، وطلبا لتفريج كربتهم، حتي سميت «قصيدة الشدائد».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيري أن يرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالا فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت علي الاطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوي حين أصيب بخراج فى بطنه استعصى علي الأطباء شفاؤه. فأرسل من يحج عنه علي حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجها له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أيضاً ما روى عن رجل أنه كان يقرأها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة وتهب عليهم بين الحين والآخر.

وفيما يلى رائعة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الاسلامى حتى يومنا هذا:

أمِن تذكر حيران بذى سَلمِ ... مَزَجْتَ دَمعًا جرى من مقلة بدمِ

أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمة ... وأومض البرقُ فى الظلماء من إضَمِ

فما لعينيكَ ان قلتَ أكفُفَا هَمَتَا ... وما لقلبكَ ان قلتَ استفق يَهِمِ

أيَحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكَتِمٌ ... ما بين منسجم منه ومُضطَرِمِ

لولا الهوى لم تُرِق دَمعًا على طللٍ ... ولا أرقتَ لذكر البان والعَلَمِ

فكيفَ تنكرُ حباً بعدما شهدت ... به عليك عُدُولُ الدمعِ والسقمِ

وأثبتَ الوجدُ خَطَّى عبرةٍ وضَنىً ... مثل البهارِ على خديكَ والعنَمِ

نعم سرى طيفُ من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألمِ

بالائمى فى الهوى العذريِّ معذرةً ... منى اليك ولو أنصَفتُ لَم تَلُمِ

عَدَتْكَ حَالى لاسري بمستتر ... عن الوُشاة ولا دائى بمُنحسمِ

مَحَضتَنى النُّصحَ لكِن لستُ أسمَعُهُ ... إن المحبَّ عن العُذالِ فى صَمَمِ

إِنى اتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ فِى عَذَلى ... والشيبُ أبعدُ فى نصح عن التُّهمِ

* * *

فإنَّ أمَارتى بالسوءِ ما اتعظت ... من جهلِها بنذيرِ الشيب والهَرَمِ

ولا أعَدت من الفعلِ الجميل قِرَى ... ضيفِ ألمَّ برأسى غير مُحتشمِ

لو كنتُ أعلَمُ أنى ما أوقرهُ ... كتمت سراً بدا لى منه بالكتمِ

من لِي يردِّ جِمَاح من غوايتها ... كما يُردُّ جماح الخيلِ باللُّجَمِ

فلا تَرُم بالمَعَاصِى كَسر شَهوتِهَا ... إن الطعامَ يُقوى شهوةَ النَّهِمِ

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهمله شبَّ عَلَى ... حُبِّ الرضاعِ وإن تفطِمه ينفطمِ

فاصرف هواها وحاذر أن تولّيَه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصمِ

وراعِهَا وهى فى الأعمال سائمةٌ ... إن هي استحلت المرعى فلا تُسمِ

كم حسّنَت لذةً للمرءِ قاتلةً ... من حيثُ لم يدرِ أنَّ السُّمَّ فى الدَسَمِ

واخشَ الدسائسَ من جوعٍ ومن شبعٍ ... فَرُبَّ مخمَصَةٍ شَرٌّ من التُخمِ

واستفرِغ الدَمعَ من عَينٍ قَد امتلأت ... من المحارمِ والزم حميَةَ الندمِ

وخالف النفسِ والشيطانَ واعصهما ... وان هما محضاك النصحَ فاتَّهِمِ

ولا تطِعْ منهُما خصمًا ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصمِ والحكمِ

أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ ... لقد نسبت به نسلا لذى عقمِ

أمرتُكَ الخير لكن ما أئتَمرتُ به ... وما استقمتُ فما قولى لك استقمِ

ولا تزودتُ قبل الموتِ نافلةً ... ولم أُصَلِّ سوَى فرضٍ ولَمْ أصُمِ

* * *

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيا الظلامَ الى ... أن اشتكت قدماهُ الضرَّ من وَرمِ

وشد من سغبٍ أحشاءه وطوى ... تحت الحجارةِ كشحًا مُترَفَ الأدمِ

وراودتُه الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ ... عن نفسِه فأراهَا أيَّما شَمَمِ

وأكدت زهدَهُ فيها ضرورتَه ... إن الضرورة لا تعد وعلى العصمِ

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ

مُحَمَّدٌ سيد الكونين والثقليـ ... ـن والفريقين من عربٍ ومن عجمِ

نبينا الآمر الناهى فلا أحَدٌ ... أبَرَّ فى قولِ لا منه ولا نَعَمِ

هو الحبيبُ الذى تُرجَى شفاعتُه ... لكلِّ هَولٍ من الأهوالِ مقتحمِ

دعـا إلـى الله فـالمسـتـمـسكون به ... مـسـتـمـسكون بحبلٍ غيـر منفصمِ

فـاق النبـيين فى خَلقٍ وفى خُلُقٍ ... ولـم يُدانُوهُ فى علـمٍ ولا كَـرَمِ

وكُلُّهم مِن رسـولِ الله مُلـتـمسٌ ... غَرفًا من البحـرِ أو رشفاً من الدِيَمِ

وواقـفـونَ لديه عند حَـدِّهمُ ... من نـقطـةِ العـلم أو مـن شَكَـلةِ الحكمِ

فـهـذا الـذي تم مـعناهُ وصـورته ... ثم أصطفـاه حـبيـبـا باري النَّسَمِ

منـزهٌ عن شـريك فى مـحاسنه ... فـجـوهر الحسن فيـه غيـر منقسمِ

دع مـا ادعتـه النصاري فى نبيـهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكمِ

وأنسب إلى ذاتـه مـا شئتَ مـن شـرف ... وأنسب إلى قـدره مـا شئـت من عِظمِ

فـإن فـضل رسـول الله ليس له ... حَـدٌّ فـيُـعـربَ عنه ناطق بفمِ

لو نـاسـبت قـدره آياته عـظمًا ... أحيـا اسمُهُ حين يدعى دَارِسَ الرِّمَمِ

لم يمتَحنّا بما تَعيَا العـقـول به ... حـرصـا علينا فلم ترتبَ ولم نـهمِ

أعـيـا الورى فَـهمُ مـعناه فليس يُرَى ... للقـرب والبعـد فيـه غيـر منفـحمِ

كـالـشمس تظـهـر للعينين من بُعدٍ ... صـغـيـرةً وتُكلُّ الطرفَ من أممِ

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقتَهُ ... قـومٌ نيـامٌ تسلوا عنه بالحلمِ

فـمـبلغ العلم فـيـه أنـه بشـرٌ ... وأنـه خـيـر خلق الله كُلِّهمِ

وكـل آيٍ أتى الـرسل الـكـرام بهـا ... فـإنما إتصلـت من نـوره بِهِمِ

فـإنه شـمسُ فـضلٍ هم كـواكبـها ... يُظهـرنَ أنـوراها للـناس فـى الظلمِ

أكـرم بخلقٍ نبى زانـه خُلُقٌ ... بالحـسن مشتـملٍ بالبـشرِ متسمِ

كـالزهرِ فى ترفٍ والبـدرِ فى شـرف ... والبـحـر فى كـرمٍ والدهرِ فـى هممِ

كــأنه وهـو فــردٌ فـى جــلالتــه ... فى عـسكرٍ حين تلقـاه وفى حـشم
كـأنما اللـؤلؤ المكنون فى صـدف ... من مـعـدنى منطـق منهُ ومـبـسم
لا طيـبَ يعــدلُ تربًا ضَـمَّ أعظُمَـهُ ... طُـوبَى لمنتـشقٍ مـنـه وملتـثِمِ

* * *

أبان مـولـده عن طيب عـنصـرِه ... يا طيبَ مـبتـدإٍ منه ومـختـتم
يومٌ تـفـرس فـيـه الفـرس أنـهم ... قـد أنـذروا بحلول الـبـؤس والنـقم
وبات إيوان كـسـرى وهو منـصـدعٌ ... كشمل أصحـاب كسرى غير ملتـئم
والنـار خـامـدة الأنفـاس مـن أسف ... عليـه والنهـر سـاهى العين مـن سـدم
وسـاء سـاوةَ أن غـاضت بحـيـرتهـا ... وردَّ واردهـا بالـغـيـظ حـين ظمـى
كـأنَّ بالـنار مـا بـالماء مـن بلـلٍ ... حـزنـاً وبالماء مـا بـالنار مـن ضـرم
والجن تـهـتف والأنوار سـاطعـة ... والحقُ يـظهـرُ من مـعـنى ومن كـلم
عَـمُـوا وصَـمُـوا فـإعـلانُ البـشـائر لم ... تسـمع وبـارقـةُ الأنـذار لم تُـشَم
من بعـد مـا أخـبَـرَ الأقـوامَ كـاهنُهُم ... بـأن ديـنـهـم المعـوج لـم يَـقُـم
وبعـدمـا عـاينوا فـى الأفق من شـهـيب ... منقـضـة وفق مـا فى الأرض من صنم
حـتى غـدا عن طريق الـوحى منهـزمٌ ... من الشـيـاطين يقـفـوا إثرَ مـنهـزم
كـأنهـم هـربـا أبطـال أبـرهـة ... أو عـسكر بالحـصى من راحـتيـه رُمِى
نبـذاً بـه بعـد تسـبـيحٍ ببطنـهـمـا ... نَبـذَ المُسَبِحِ من أحـيـسـاءِ ملتـقم

* * *

جـاءت لـدعـوته الأشـجـار سـاجـدةً ... تمشـى اليـه على سـاقٍ بلا قـدم

كـــأنما سطـرت سطرا لما كـتـــبت فُــروعُـــهَـــا مـن بديع الخـط باللَّقَمِ

مِـثلُ الـغَـمَـامَـةِ أنيَّ سَـــارَ سـائرةٌ تقـيـه حـرَ وطـيسٍ للهـجيـرِ حَـمِي

أقـــســمت بالقـــمــر المنشـق ان له من قلبـه نسـبـة مـبـرورة القـسم

ومـا حـوى الغـار مـن خيـر ومن كـرم وكل طـرف من الكـفـار عنه عَـمِي

فـالصدق فـى الغار والصـديق لم يرمـا وهم يـقــولون مـــا بالغــارِ من أرمِ

ظنوا الحـمامَ وظنـوا العنكبـوتَ على خـيــر البــرية لم تنسجْ ولم تَـحُمِ

وقـايـة الله أغنت عن مـضـاعـفـة مـن الدروع وعـن عـــالٍ من الأُطُمِ

ما سـامنى الدهر ضَـيمًا واستجرتُ به الا ونـلتُ جـــواراً منـهُ لـم يُضَـمِ

ولا التـمـست غـنى الدارين مـن يده الا استلمت النـدى من خيـر مـستلم

لا تُـنـكـرِ الـوَحْـىَ مـن رؤيـاهُ إنَّ لَـهُ قـلبـًا إذا نامـت العـيـنانِ لـم ينَـم

وذاك حـين بـلـوغٍ مـن نبـــوّتـه فليس ينكر فـيـه حـال مـحـتلم

تبـارك الله مـــا وحـى بمكتـسب ولانبى عـلـى غـيـب بمُتَّـهَـم

كم أبرأت وصـبـًا بـاللمس راحتـه وأطـلقـت أربًا من ربـقَـةِ اللَّمَـم

وأحـيـتِ السنَةَ الشـهـبَـاء دعـوتُه حتى حكت غـرةً فـى الأعـصُـرِ الدهم

بعـارضٍ جَـاد أو خِلتُ البطَـاح بهـا سـيبًـا من اليَم أو سـيلاً من العَـرِمِ

* * *

دعنـى ووصـفى آيات لـه ظهـرت ظهـور نار القـرى لبـلاً على عَـلَمِ

فـالـدر يزدادُ حـسنًا وهو منـتـظمٌ وليس يَنقُصُ قـدراً غـيـر منتظم

فـمـا تطَـاول آمـالِ المديح الى مـا فـيـه من كـرم الأخـلاق والشـيم

آياتُ حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدمِ

لم تقترن بزمانٍ وهى تخبرنا ... عن المعاد وعن عادٍ وعن إرمِ

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيينَ إذ جاءَت ولم تَدُمِ

محكماتٌ فما تبقينَ من شُبَه ... لذى شقاقٍ وما تبغينَ من حكمِ

ما حُورِبتَ قط الا عادَ من حربٍ ... أعدى الأعادي اليها ملقى السَّلَمِ

ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحُرَمِ

لها معانٍ كموج البحرِ فى مددٍ ... وفوق جوهره فى الحسن والقيمِ

فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الأكثار بالسَّأمِ

قُرَّت بها عين قاريها فقلت له ... لقد ظَفرتَ بحبل الله فاعتصمِ

ان تَتلُهَا خِيفةً من حر نار لظى ... أطفأت حر لظى من وردها الشَّيمِ

كأنها الحوضُ تَبيضُّ الوجوهُ به ... من العصاةِ وقد جاءُوهُ كالحُمَمِ

وكالصراط وكالميزان معدلةً ... فالقسطُ من غيرها فى الناس لم يَقُمِ

لا تعجبن لحسودٍ راح ينكرها ... تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهمِ

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ ... وينكر الفمُ طعمَ الماء من سقمِ

* * *

يا خير من يَمَّمَ العافُونَ ساحتهُ ... سعيا وفوق متون الأينُقِ الرُّسُمِ

ومَن هو الآيةُ الكبرى لمعتَبرٍ ... ومن هو النعمة العظمى لمغتنمِ

سريت من حرمٍ ليلا الي حرمِ ... كما سرى البدرُ فى داجٍ من الظلمِ

وبت ترقى الى أن نلتَ منزلةً ... من قابِ قوسين لم تدرك ولم ترمِ

وقـدمـتك جـمـيع الأنبـيـاء بهـا ... والرسل تقـديم مـخـدومٍ على خـدمِ

وأنت تخـتـرق السـبع الـطبـاق بهم ... في مـوكبٍ كـنت فـيـه صـاحـب العَلَمِ

حـتى إذا لم تـدع شـأواً لمسـتـبقٍ ... مـن الدنُوَ ولا مـرقـى لمسـتـنِمِ

خـفـضـت كل مـقـام بـالاضـافـة اذ ... نوديـت بالرفـع مـثل المفـرد العـلمِ

كـيـمـا تفـوز بـوصلٍ أيٍّ مـسـتـترٍ ... عن العـيـون وَسـرٍّ مكـتَـتَمِ

فـحُزتَ كـل فـخارٍ غـيـر مـشـتـركٍ ... وَجُـزتَ كل مـقـامٍ غـيـر مـزدحمِ

وجل مـقـدارُ مـا وليت مـن رتب ... وعـز ادراكُ مـا أوليـت من نـعمِ

بشـرى لنا مـعـشـر الاسـلام ان لنا ... من العـنـاية ركنـا غـيـر منهـدمِ

لما دعـا الله داعـينـا لطـاعـتـه ... بأكـرم الـرسل كـنا أكـرمَ الأمَـمِ

* * *

راعت قلـوب العـدا أنبـاء بعـثـتـه ... كنبـأة أجـفلت غـفـلاً من الغـنمِ

مـا زال يلـقـاهم فى كل مـعـتـركٍ ... حـتى حكـوا بالقَنَا لحـمـاً عـلى وضَمِ

ودوا الفـرار فـكادوا يـغـبطـون به ... أشـلاء شـالت مع العـقـبـان والرخمِ

تمضى الـليـالـى ولا يدرون عـدتَّهَـا ... مـا لم تكـن من ليـالى الأشـهـرِ الحُـرمِ

كـأنما الدين ضـيف حل سـاحـتـهم ... بكـل قَـرمٍ الي لحـم العِـدَا قَـرِمِ

يَجُـرُ بَحَـرَ خَـمِيسٍ فـوق سـابحـة ... يـرمـى بمـوجٍ مـن الأبـطـال مُـلـتَطِـمِ

من كـل منتـدب لله محـتـسب ... يسطـو بمسـتـأصل للكفـر مـصـطلمِ

حـتى غـدت ملةُ الاسـلام وهـى بهم ... من بعـد غـربتـهـا مـوصـولة الرحمِ

مكـفـولةٌ أبـدا منهـم بخـيـر أبٍ ... وخـيـر بـعلٍ فلـم تَيـتَـم ولـم تَئِـمِ

هم الجبالُ فسَلْ عنهم مصادمَهُمْ ... ماذا رأي منهم في كل مصطدمِ

وسل حنينًا وسل بدرًا وسل أُحدًا ... فصول حتف لهم أدهى من الوَخَمِ

المُصدري البيض حُمرًا بعدما وردت ... من العدا كل مسَودٍّ من اللمَمِ

والكاتبينَ بسمرِ الخَطِّ ما تركت ... أقلامهم حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ

شاكي السلاح لهم سِيمَا تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السَّلَمِ

تهدى اليك رياحُ النصرِ نشرَهمُ ... فتحسب الزهرَ فى الأكمامِ كل كَمِي

كأنهم فى ظهور الخيل نبتُ رُبًا ... من شدة الحَزم لا من شدة الحُزُمِ

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا ... فما تفرق بين البَهمِ والبُهَمِ

ومن تكن برسول الله نصرَتُه ... إنْ تَلقَهُ الأسدُ فى آجامِها تَجِمِ

ولن ترى من ولى غير منتصرٍ ... به ولا من عدو غير منقصمِ

أحل أمنه فى حرز ملته ... كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ فى أَجَمِ

كم جَدَّلت كلماتُ الله من جَدِلٍ ... فيه وكم خَصَمَ البرهانُ مِن خَصِمِ

كفاك بالعِلمِ فى الأميِّ معجزةً ... فى الجاهلية والتأديبِ في اليُتُمِ

* * *

خدمتُهُ بمديح أستقيلُ به ... ذنوبَ عمرٍ مضى فى الشعرِ والخِدَمِ

اذ قلداني ما تخشى عواقبه ... كأنني بهما هديٌ من النعمِ

أطعت غيَّ الصبا فى الحالتين وما ... حصلت الا على الآثامِ والندمِ

فيا خسارةَ نفسٍ فى تجارتها ... لم تشترِ الدين بالدنيا ولم تَسُمِ

ومن يبع آجلاً منه بعاجله ... يبن لهُ الغَبنُ فى بيعٍ وفى سَلَمِ

إنْ آتِ ذنبـًا فمـا عـهـدى بمنتـقضٍ   من الـنبى ولا حَـبلـىِ بمُنصَـرِمِ

فـإن لى ذمَـةً منهُ بتـسـمـيـتى   مـحـمـداً وهـو أوفى الخلق بـالذممِ

إن لم يكـن فى مـعـادى آخـذاً بيـدى   فـضـلاً وإلا فَـقُلْ يا زَلـةَ القـدمِ

حـاشـاهُ أن يحـرم الراجى مكارِمَـهُ   أو يرجع الجـارُ منه غـيـر مُـحـتَـرمِ

ومنـذ ألزمـتُ أفكـارى مـدائحـه   وجـدته لخـلاصـى خـيـر ملتـزمِ

ولن يـفـوت الغـنى مـنه يـداً تَرِبَـتْ   إن الحَـيـا يُنبِتُ الأزهَارَ فـى الأكَمِ

ولم أرِد زهرةَ الـدنيـا الـتى اقـتـطفت   يـدا زهـيـر بمـا أثـنى عـلى هَـرِمِ

* * *

يا أكـرمَ الخلـق مـا لى من ألـوذُ به   سـواك عنـد حلول الحـادث الـعـممِ

ولن يـضـيق رسـول الله جـاهُـكَ بى   اذا الـكريمُ تحـلـى باسـمِ مُنتَـقـمِ

فـان من جُـودِكَ الدنيـا وضـرتهـا   ومـن عـلومـك عـلـم الـلوحِ والقـلـمِ

يـا نفـس لا تـقـنـطـى من زلـةٍ عَـظُمـتْ   إن الكبـائرَ فى الغـفـرانِ كـالـلَّمَمِ

لعلى رحـمـةَ ربـى حين يقـسـمـهـا   تأتى على حـسب العـصيـان فى القـسمِ

يارب واجـعـل رجـائى غـيـر منعكسٍ   لديك واجـعل حسـابـى غـيـر منخـرمِ

والطـف بعـبـدكَ فى الداريـنِ إن له   صـبـراً مـتـى تدعـهُ الأهوالُ ينهَـزِمِ

وَأذَن لسـحـبِ صـلاة منكَ دائمـة   عـلى الـنبـىِّ بمنـهـلٍ ومُنسَـجـمِ

مـا رنَّحَت عـذابات البـانِ ريحُ صَبـاً   وأطرب العـيسَ حـادى العـيسِ بالنَّغَمِ

ثم الرضـا عن أبيـبكـرٍ وعن عـمـر   وعن علـىٍّ وعن عـثـمـانَ ذى الكرَمِ

والآل والصـحـب ثم التـابعـين فـهـم   أهل التـقـى والنقـغـا والحلـم والكرمِ

يارب بـالمصطفى بلغ مـــقـــاصـــدنا　　　واغــفـر لـنا مـا مــضى يا واسعَ الكرمِ

واغـــــفـــــر الـهى لـكل المسلمـين بما　　　يتلون فى المسـجـد الأقصى وفى الحـرمِ

بجـــاه من بيــتـــه فى طِيـبَـــةِ حَـــرِمِ　　　واســـمُـــهُ قُــسمُ من أعـظم القـــسمِ

وهذه بردة المخــــتــار قـــد خُــتِــمَتْ　　　والحــــمـــــد لله فى بدءٍ وفـى خَــــتَمِ

أبيــــاتُهَــا قـــد أَتَـت سِـتِّينَ مع مِــائة　　　فــــرج بـهــــا كــــرْبَنَـا يا واسِعَ الـكَرَمِ

* * *

سلمى..

شربنا حُميّا الكأس فى قدس حضرةٍ
وأكرم بها فى حضرة القُدس من خمرِ
لنا عُصِرَتْ من كَرمْ نور جمال مَنْ
سقانا وقد غنينا وحرنا فما ندرى
سكرنا بها من شمها قبل شربها
نشاوى بريّاها إلى آخر الدهرِ

« اليافعى »

هذا شاعر صوفى آخر . يفيض شعره رقة وعذوبة، ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده، ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته الرفيعة فى عوالم الصوفية، والحب الالهى. شاعرنا هنا هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، نسبته الى "يافع" من حمير، مولده ونشأته فى عدن بأرض اليمن.

كان اليافعى ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد فى نفسه مع الأيام ميلا الي التصوف.

وعندما وجد اليافعى فى نفسه رغبة في الاستزدادة من مناهل العلم، على يد أعلام عصره، ارتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته، وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعى مؤلفات كثيرة فى التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى سبعين عاما وهى عمره كله (٦٩٨ -٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفى هذا المؤلف يشرح اليافعى بأسلوب أدبى جميل الأحوال والمقامات، كما يضمنه ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعى أيضاً «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، الذى يتناول سير خمسمائه من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم ، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم ، وكل ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعى فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة ، وشفافية الروح، ويغلب عليها الرمز.

وانظر اليه يقول فى قصيدة بعنوان «لباب اللب فى مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعانى الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العوى فى مذهب الحب والفقر ... بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ

سوى رؤية المحبوب فى ساعة القا ... اذا ما قتيل السيف عوض فى الحشرِ

فشّتان ما بين المقامين فى العُلى ... وبين شهيد الحب والسيف فى القَدْرِ

فما طالبُ مولى له طال شوقه ... وفى حبه قد مات خالٍ عن الصبرِ

كطالب مطعوم الجنان وشربها ... وملبوسها والخيل والحور والقصرِ

كفى شرفًا موت المحب صبابةً ... بمولى، وفضلاً جلّ قدراً عن الحصرِ

قتيل جمالٍ قد وَدُوه برؤيةٍ ... ووصلٍ وقربٍ والتنادمِ والسرّ

وتكمن أهمية شعر اليافعى فى أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعى أشعار كثيرة تفيض رقة وعذوبة، الا اننا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصلى «الراح المختوم والدر المنظوم فى مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرّ ... عسى خبرٌ يلقاكما، طيّب الذكرِ

يجيءُ به من نحوها عذبُ منطق ... يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ

يُخّبر عن سلمى وعن ذلك الحمى ... وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى

رعى الله عهداً مرّمع جيرة الحمى ... هنا فى رياضٍ زاهراتٍ به زُهْر

سقتنا بها سلمى من الراح عندما ... بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدرِ

* * *

أماطت حجابًا عن بهاء جمالها ... فهمنا سكارى فى المهامة والقفر
نرومُ التسليّ عن هواها ببُعْدنا ... وكلٌّ جمال فى الوجود بها يغرى
خليلّى ما سلمى ونجدٌ وما الحمى ... وما راحُها، ما كأسُها، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس فى قُدس حضرة ... وأكُرِم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمال من ... سقانا، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

* * *

سكرنا بها من شمها قبلَ شرْبها ... نشاوى بريّاها إلى آخر الدهرِ
أو السّكر ذا من رؤية الكأس، أو أنت ... به رؤية الساقى الينا ذوى السُّكرِ
تجلىً بأوصاف الجمال فشاهدت ... عيونٌ قلوب ما به حار ذو الفكْرِ
فيا ليلةٌ فيها السعاداتُ والمنى ... لقد صغُرت فى جنبها ليلة القدْرِ
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرِّضا ... أتانا أغرُّ السَّعْد بالخلع الخُضْرِ
رسول عنايات برسم ولاية ... وتصريفنا فى الملك فى البَرِّ والبحْرِ
وضاءت لنا أنوارُ غيبِ وشوهدت ... أمورٌ وأعلمنا بها أنها تجرى
وحلّت بوادى طور قلب معارف ... زهت فيه كم حسناء فى داخل الخدرِ
وكمْ حكم تجلى ملاح، كأنها ... عرائسُ أبكارٌ على منطق الدرِّ
وكم يدفع الله البلايا بسادة ... من الخلق فى كشف الشدائد والضُرِّ

* * *

فمنْ لم بذا يؤمنْ، فقولوا له إذا ... تجرًّا على الغُرِّ المشايخ بالنُكْرِ
تجلّى فُضولاً فى فضائل سادة ... لهم فى سما مجد المفاخر كم قَصْرِ
مقاماتُ أحباب ترى الشهب دونَها ... بنْوها بياقوت المواهبِ والدرِّ
تضىء الديّاجى من بهاء جمالها ... بما يهتدى مَنْ للعلا نحوها يسرى
وما تلك من أشباه عُشِّك، فادرُج ... إلى جوف عشٍّ فى الغيابات أو جُحْرِ

* * *

كأسي وخمري..

أحبك حبين: حب الهوى
وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حبُ الهوى
فشغلي بذكرِك عمنْ سواكا

« رابعة العدوية »

نعم هى أشهر النساء اللائى عرفن بالزهد، بل التصوف، فعزفن عن الحياة الدنيا، وتقشفن، وتنسكن، وتعبدن الله، انها ام الخير رابعة القيسية، والتى تغلب عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها فى النسك والزهد، قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟ فقالت وهو من بليغ القول : والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟.

وتعبيراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت: ان كان شيء فخوفى من أن يرد على.

وقال رجل لرابعة: انى قد اكترث من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب على أن تبت؟ قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هى واخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناى، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت تحب الناى عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت ربها قائلة: «الهى! اني غريبة ويتيمة وأرسف فى قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟» أى أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهـال الي الله أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فـوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتنى تحت رحـمة هذا المخلوق القاسى من عبـدتك!»، فلما كان الصبـاح طلبها سيدها وأعتقهـا ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفـت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العـشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليـها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مـقامى بين يديك»، ثم تقـبل على الصلاة فـاذا كان السـحر وطلع الفجر قالت: «الـهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شـعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى!».

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم «شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعـض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحـبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشـعارها فى المحبـة الالهية ظهـرت دعوة رابعـة العدوية واضحـة جلية، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعـة العدوية «كـأسى وخمرى» -فى رأينا طبـعا- وبعـدها «أحبك حبين» أشهـر أشعارها وبعدها بعض مـقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكـنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات ايقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كـــأسى وخـــمـــرى والنديم ثـلاثة   وأنا المشـــوقـــة فى المحـــبـــة رابعـــة

كـــأسى المســـرة والنعـــيم يديـرها   ســاقى المدام عـلى المدى مـتـتـابعـة

فإذا نظرت فلا أرى إلاَّ له ... وإذا حضرت فلا أرى إلا معه

يا عاذلى إِنى أحبُ جمالَهُ ... تالله ما أُذنى لعذلِكَ سامعة

* * *

أحبك حبين: حب الهوى ... وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذى هو حبُ الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفك للحُجب حتى أراكا

فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

* * *

راحتى يا اخوتى فى خلوتى ... وحبيبى دائماً فى حضرتى

لم أجدْ لى عن هواه عوضًا ... وهواه فى البرايا محنتى

حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابى إليه قبلتى

إن متُ وجداً وما ثم رضا ... وأعنائى فى الورى وأشقوتى

يا طبيبَ القلبِ يا كلُ المنى ... جُدْ بوصل منك يشفى مهجتى

يا سرورى وحياتى دائماً ... نشأتى منك وأيضاً نشوتى

قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرتجى ... منك وصلاً فهو أقصى منيتى

* * *

يا سرورى ومنيتى وعماد ... وأنيسى وعُدتى ومُرادى

أنت روح الفؤاد، أنت رجائى ... أنت لى مؤنس وشوقك زادى

أنت لولاك يا حياتى وأنس ... ما تشتت فى فسيح البلاد

كـم بـدت مـنَّة وكـم لـك عـنـدى   مـن عطاء ونـعـمـةٍ وأيـادى

حـبك الآن بـغـيـتى ونـعـيـمى   وجـلاء لـعين قـلبى الـصـادى

ليس لى عنك مـا حـييتُ براح   أنـت منى مُـمَـكَّن فـى الـسـواد

أن تكـن راضـيـاً عليَّ فـإنى   يا مـنى القـلب قـد باد إسـعـادى

* * *

تدلالا..

نصـــحـــتك علمــا بالـهـــوى.. والذى أرى

مــخــالفــتى.. فــاخــتـر لنفــسك مــا يـحلو

فـــإن شــئـت أن تحــيــا سـعـيــدا فَـــمُت به

شـــــهــــيـــداً وإلا فـــــالغـــــرام لـه أهل

« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر، ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه إبن الفارض في العشق سلطان العاشقين ــ كما هو عند الصوفية ــ وفي الحب إمام المحبين، وفي الهوي قدوة المقتدين، وفي النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون علي أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت في ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلي الكفر والقول بالاتحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف في الثناء عليه، فمن يكون إبن الفارض؟

هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بإبن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وإبن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوه بها ويتغنى فيها، ولقد عاش في عصر الأيوبيين (٥٥٦ ـ ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية إبن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ إبن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمي «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا إبن الفارض آثارا مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر إبن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب إبن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر إبن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روحي. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاءً، وضمنا	سواء سبيلي دارها وخيامِي
وملنا كذا شيئا عن الحي، حيث لا	رقيبٌ، ولا واشٍ بزورِ كلامِ
فرشتُ لها خدي وطاءً علي الثري	فقال: لك البشر بلثمِ لثامِي
فما سمحتْ نفسي بذلك غيرةً	على صونِها مني لعزِ مرامِي
وبِتنا كما شاء إقتراحي على المنى	أري الملكَ ملكِي والزمانَ غلامِي

وسوف نقدم هنا ـ عزيزي القارئ ـ رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

ته دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا	وتحكم فالحسن قد أعطاكا

ولك الأمـــرُ مـــا أنت قـــاضٍ فـــعلىَّ الجـــمـــالُ قـــد ولأكـــا

وتلافـي ان كـــان فـيـــه ائتـــلافي بكَ، عـــجِّل به جُـــعلتُ فـداكـــا

وبما شـئت في هـواكَ اخـتـبـرني فـاخـتـبـاري مـا كـان فيـه رضـاكـا

فـــعلى كـلِّ حـــالة أنـت منيِّ بي أولـى، وإذْ لم أكـنْ لـولاكـــا

* * *

وكـــفـــاني عـــزاً بحـــبـك ذُلِّي وخـضـوعي، ولـست من أكـفـاكـا

وإذا مـــا إليـك بالـوصل عـــزَّتْ نســـبـــتي عـــزَّةً وصحَّ ولاكـــا

فـــاتهـامـي بالحب حـسْـبي، وإني بين قـــومي أُعـــدُّ من قـــتـــلاكـــا

لـك فـي الحـيِّ هـالـكٌ بـك حـيٌّ في سـبـيل الهـوى اسـتلذَّ الهـلاكـا

عـبـــد رقٍّ مـــارقَّ يومًـــا لـعـــتق لو تـخَلـيْتَ عـنه مـــا خـــلأكـــا

* * *

بجـــمـــال حـــجـــبْـتـــهُ، بـجـــلال هامَ وإســـتـــعـــذَب العـــذابَ هناكـــا

وإذا مـــا أمْنُ الرجـــا منه أدنا كَ، فـعـنهُ خـوفُ الحـجى أقـصـاكـا

فـبـــإقـــدام رغـبـــةِ حين يغـــشـــا كَ، باحـــجـــامِ رهبـــةِ يخـــشـــاكـــا

ذات قـلب فـــأذَنْ له يتـــمنَّا كَ، وفـــيـــه بقـــيـــةٌ لرجـــاكـــا

أومـــر الـغـــمْضَ أن يمـرُ بِجـــفْـني فكـأني به مـطيـــعًـــا عـــصـــاكـــا

* * *

فـعـسى في المنام يعـرضُ لي الـوهـــ ـــم، فـيـوحي سـراً إلي سُـراكـا

وإذا لـم تُنعـش بـروح التـــمني ... رمـقي، واقـتـضى فنائي بقـاكـا

وحَمت سُنةُ الهـوى سنة الغَمْـ ... ـض جـفُوني، وحـرمّت لُقْـيـاكَـا

أبْقِ لي مـقْـلةً لـعلّى يـومًـا ... قـبل مـوتي أري بـهـا من رآكـا

أين مني مـارمتُ هيْـهـاتَ، بـل أيـ ... ـنَ لعـيني بالجـفنِ لَثْمُ ثراكـا

* * *

فَـبـشـيـري لو جـاء منْكَ بـعطْفٍ ... ووجـوي في قـبـضـتي، قلت هاكـا

قـد كـفي مـا أري دمـا من جُـفـونٍ ... بك قـرْحى، فـهـل جرى مـا كـفـاكـا

فـأجـر من قـلاكَ فـيك مُـعـنيًّ ... قـبل أن يعـرفُ الـهـوى يهـواكـا

هبْكَ أنَّ اللاَّحـى نهــاهْ بِجـهـلٍ ... عنْكَ قُـلْ لي عن وصلـه منْ نهـاكَـا

وإلي عِـشْـقِكَ الجـمـالُ دعـاهُ ... فـإلي هـجْـره تـري من دعـاكـا

* * *

أتُرى مَـنْ أفْـتـاَك بالـصـدِّ عنيِّ ... ولغـيـري بالودِّ مَـنْ أفـتـاكـا

بانـكـسـاري بـذلّتي بـخـضـوعي ... بافـتـقـاري بـفـاقـتي بِـغناكـا

لاتـكلـني إلـى قـوى جلَـد خـا ... نَ، فـاني أصـبحتُ من ضُعـفـاكا

كنت تجـفـو وكـان لي بعضُ صـبْـرٍ ... أحْـسَنَ اللهُ في اصطبـاري عـزاَكَـا

كم صـدودًا عـسـاكَ ترحمُ شكوا ... ى، ولو باسـتـمـاع قَـولي عـسـاكـا

شنَّع المُـرجـفـون عـنك بهـجـري ... وأشـاعـوا أني سَلُوتُ هواكـا

مـا بأحـشـائهم عـشـقْتُ فـأسلو ... عنك يومًـا، دع يهـجـروا، حـاشـاكـا

كـــيف أسلـو ومـــقـلتي كُلمــــالا ... حَ بـريقٌ تـلفَّـــتـتَ للـقِـــاكــــا
ان تنسَـــمـتُ تحت ضـــوءِ لثـــامٍ ... أو تنســمْـتُ الريحَ مـن أنبْــاكــا
طِبْـتُ نفـــسًـــا إذْ لاح صُـــبحُ ثنايا ... كَ لعـــيْني، وفـــاح طيـبُ شــذاكــا

* * *

كل من فـي حِـمـــاكَ يهـواكَ، لـكن ... أنا وحــدي بـكلٍّ من في حـمــاكــا
فـيك مـعنىً حَـلاكَ في عيْن عـقلي ... وبه نـاظري مُـــعنىً حِـــلاكـــا
فُـقْـتَ أهل الجـمــال حُسْنًا وحُسْني ... فـبـهـمْ فـــاقـــهُ إلى مـعْـنـاكــا
يُحـشــر العــاشــقـون تحت لوائي ... وجـــمــيع الملاحِ تَحْتَ لواكـــا
مـــاثناني عنْكَ الضَّنى فـبـمـــاذا ... يـا مليح الـدَّلالِ عنى ثـنـاكــــا

* * *

لـك قـــربٌ ببـــعـــدك عنيَّ ... وحنو وجـــدتهُ في جَـــفـــاكــــا
علم الشـوق مـقلتي سهـر اللَّيْـــ ... ــلِ، فـصـارتْ من غـيـر نومٍ تـراكـا
حــبَّــذا ليـلةٌ بهـــا صِـدْتُ أســرا ... كَ، وكـــان السُّـهـــادُ لي أشـراكـــا
ناب بدر الـتـمـــام طـيْفَ مُـحـيَّـــا ... كَ لطـرفِي، بيــقظتي إذ حكاكـــا
فـــتـــراءيت في ســـواكَ لـعينٍ ... بك قـــرَّتْ ومـــا رأيت ســـواكـــا

* * *

وكـــذاك الخليلُ قـلب قـــبلي ... طرْفـــه حين راقـبَ الأفـــلاكـــا
فـــالـد ياجـي لنا بـك الآن غُـــرٌّ ... حـــيث أهديتَ لي هُدىً مـن ثناكـــا

ومـتى غـبْتَ ظاهراً عـن عـيـاني   أُلفـه نحـو باطني ألفـاكـا

أهـل بُدرٍ ركـبٌ سـريتَ بـليلٍ   فـيـه بل سَـار في نهـارِ ضيـاكـا

واقتـباسُ الأنوار من ظاهري غـيـ   ـر عـجـيـبٍ وباطني مـأواكـا

* * *

يغْبَق المسْكُ حيـثـما ذُكـرَ اسْمي   منذ ناديْتَني أقَـبِّلُ فـاكـا

ويضـوع العـبـيـرُ في كـلِّ ناد   وهو ذكـرٌ مـعـبـرٌ عن شـذاكـا

قـال لي حـسنُ كـلِّ شيءٍ تجلّى   بي تملي فـقلتُ قـصـدي وراكـا

لي حـبـيـبٌ أراكَ فـيـه مـعنىً   غُـرَّ غـيـري وفـيـه مَـعْنىٍّ أراكـا

ان تـولىَّ عـلـى النفـوس تولّىً   أوتجلّى يسـتـعـبـدُ النُسَّـاكـا

فـيـه عـوِّضتُ هُداي ضـلالاً   ورشـادى غـيًّا وسـترى انهـتـاكـا

وحـدَّ القلبُ حـبـه فـالتـفـاتي   لك شـرْكٌ ولا أرى الاشـراكـا

يا أخـا العـذْلِ في من الحسْن مثْلي   هام وجـداً بـه عـدمْتُ أخـاكـا

لو رأيـت الذي سـبـاني فـيـه   من جـمـالٍ ولن تراه سـبـاكـا

ومـتـى لاح لي اغـتـفـرْتُ سُـهادي   ولـعـيـنيَّ قـلتُ هـذا بِذاكـا

* * *

الألسنة والأسماع، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاما، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما عـلـمـت بـأن قـلـب فـارغ   ممن سـواك، مـلأته بـهـواكـا

وملأت كلي منك، حتى لم أدع ... منى مكانا خاليا لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه ... والنطق لا ينفكُّ عن ذكراكا
والطرف حيث أُجيله متلفتا ... في كل شئ يجتلي معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلمٍ ... إلا إذا ما حَدّثوا بحلاكا

بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قرب مني، ببعدك عني ... وحنوٌّ وجدته في جفاكا
علّم الشوق مقلتي سهر الليل ... فصارت من غير نوم تركا
حبذا ليلة بها صدتُ اسراك ... وكان السهاد لي أشراكا
بات بدر التمام طيف محيّاك ... لطرفي بيقظيً إذ حكاك
فتراءيت في سواك لعينٍ ... بك قَرَّتْ وما رأيت سواكا

وهى أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة، وهو مجال كان لإبن الفارض فضل السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه ان غاب عني كل حارجة ... في كل معنى لطيف رائق بهيج
في نغمة العود والناي الرخيم، اذا ... تألفّا بين ألحانٍ من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في ... برد الأصائل والاصباحِ في البَلَجِ
وفي مساقط أنداء الغمام علي ... بساط نَوْر من الأزهار مُنتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إليَّ سُحَيراً أطيب الأرج
وفي التشامىَ ثغر الكأس مرتشفًا ... ريق المدامة في مستنزه فرج
لم أدْرِ ما غربةُ الأوطانِ وهو معي ... وخاطري أين كنا غير منزعجِ

* * *

ليلى..

قد سُقتُ في الهوى إليكَ مهجتي

والدمُ دمعٌ لغرامي شاهدُ

ولم أقصرْ فيكَ عن حفظ الهوي

والحرُ مَنْ يحفظْ من يعاهدُ

« نجم الدين »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفى الكبير، الذى لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف فى القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن على بن الحسين الشيبانى المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (٦٠٣-٦٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا فى البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحى فى حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ على الحريرى ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا فى توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الأبيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشيرُ إليهم المتكلم	واليهمُ يتوجَّه المتظلمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى	وتلذُّ لوعاتُ الغرامِ المغرمُ
هذا الوجود وان تعدَّد ظاهراً	وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وشغلتمُ كلى بكم وجوارحي	وجوانحى أبداً تحنُّ إليكمُ

* * *

واذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم	واذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
واذا نطقت ففى صفات جمالكم	واذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
واذا سكرتُ فمن مُدامةِ حبكم	وبذكركم فى سكرتى أترنَّمُ
واذا نظمتُ تغزُّلاً فى صورةٍ	فلأجل حُسنكمُ المحجَّبِ أنظمُ

* * *

أنتم حقيقةُ كُلِّ موجودٍ بدا	ووجود هذى الكائنات تَوَهُّمُ

أنا فـي وجـــودكمُ غـــريـبٌ بائـنٌ　　وغـــريـبكم مــــا بالـهُ لا يُرحـمُ

ويتـميز شـعر نجم الـدين بصدق مـعانيـه، وروعة مخـيلتـه، وسمو مـقاصـده، وغناء مفاهيمـه الصوفية. وسوف نورد هنا غـزلية نجم الدين الصوفية الرقيـقة «ليلى» التى يرمز فيها للجمال الالهى بليلى، ويقول مؤثرا الموت على الهجر:

هل عـــهـد ليـلى بالكـثـيف عـــائدٌ　　أم طيـفـهـا لسُـقْمِ جسـمى عـــائدُ

حـــوار حـار الـعـقلُ فـى صـفـــاتهـا　　لهـا الجـمـالُ عـاشقٌ وحــاسـدُ

فـكـل عــــضـــوٍ بدرٌ طـالـعٌ　　وكل عـطف فـيـه غـصنٌ مـائدُ

فـعطهـفـا وحُسـنُ صـبـرى ناقصٌ　　وحـسنهـا وفـرط وجـدى زائدٌ

* * *

يا كـعـبـةَ الحـسن التى أحجُّـهـا　　فـــؤادُ مُـضناكَ عـليكَ وافــدُ

قـد سُقْتُ فى الهـوى اليك مبهـجتي　　والـدمُّ دمع لـغـــرامى شــاهـدُ

وطفـتُ فى مـــغـناك حـتى مَلّنى　　من أرضـك الرســومُ والمعـــاهدُ

ولـم أقـصِّـر فـيك عن حـفـظ الهـوي　　والحُـــرُّ من يحــفظ مَنْ يعــاهدُ

* * *

وربما يُجــمَـعُ جــمعَ شــملـنا　　بـكم وتـصــفـــو عـنْدك المواردُ

وَعـلَّـنـا نقـــضى مُـنـانـا بمنى　　وتنـقـــضى من وصلـنـا المواعـــدُ

* * *

أو لا فـمـــوتى فـيكمُ شـهـادةٌ　　علىَّ فـيـهــا بالرضى شَـواهدُ

إلى كَـمْ، رعـاكَ اللـهُ، تنأى وأقـربُ　　وأرضى بمـا تجنى علـى وتغـــضبُ

فـلا أنتَ مـشك ان شكوتُ فـيشـتـفي   فـؤادي وان أعـتبْ فـمـا أنت مُـعْـتَبُ
تـكـلـفـتَ لـي ذاك الـودادَ فـلـم يـدمْ   وكـلُّ وداد بالـتـكـلـف يـصــــعـبُ
ومَنْ يتـكلفْ ضــد مـا هو طبــعـه   تَعُـدْ نـفــسـه للطبعِ والطبـعُ أغلبُ

* * *

يـقـــــولون هـنـدٌ لا تـدومُ وزينـبُ   على العــهـد، كُلُّ الناسِ هـنـدٌ وزينبُ
تـطـلـبـتُ وداً لا يـكـون لـعـلـة   فـأعْـوَزَني وجـدانُ مـنـا أتطـلبُ
وحـاولتُ مَـنْ يوفي بعـهـد فـلم أجـدْ   كـأن الـذي حـاولتُ عنـقـاءُ مـغـربُ
تلطَّـفْ فـإن اللطـفَ منك سـجـيـنةٌ   تعطَّفْ فـإن العطـفَ منك مـجـرَّبُ

* * *

وان كـان لابُداً من الهـجـرِ فـاتئـدْ   لعـل رحـيلي عـن جنابـكُ يُقْـربُ
سـأرحلُ عـنك اليـوم لامـتـلـفتٌ   بوجـهـي كـأني خـائفٌ مـتـرقِّبُ
وأمـا ودادي فـهـو بـاقٍ وإن من   بـقـاء ودادي أنـني أتـعـتَّـبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ

وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ

« إبن أبى الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم إبن أبى الخير، هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها شعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان إبن أبى الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى ، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكى تحتوى الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقى من عاصروا، أو تلوه من شعراء الفرس.

وقد درس إبن أبى الخير الفقه الشافعي، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكان يصلى بالليل والنهار ويصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف إبن أبى الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبى ... على لوح قبرى كان هذا متيما

لعل شجيا عارفا سنن الهوى ... يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن إبن أبى الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التى شدت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا سنورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للعربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: حدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز ببهجته وسناه

فقال: أنا وحدى الفائز به.. مادمتُ فى الوجود والحياة

فإنى أنا وحدى لعاشقٌ والمعشوقُ والعشقُ فى منتهاه

وإني. أنا وحدى العينُ المبصرةُ والجمالُ الزاهي والمرآة!

***

لا تلمني يا سيدي إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ
وإذا قضيتُ في الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيب والشباب
فأنا في إفاقتي أعاشرُ الأحبابَ وغير الأحباب
ولكنني متى سَكِرْتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحاب!

***

حدثتُ طبيبي عن آلامي الكثيرة الخافية
فقالَ لي كُفْ الحديثَ ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية
وحذارِ أن تفكرَ في الدارِ الفانية أو الباقية

***

يا إلهي أنا في عثرتي أرتجي عفوكَ ورضاكَ
وأنا في ذلَّتي أبتغي رحمتَك ونداكَ
ولنْ أفعلَ كسائر الناسِ فأحتَمي بهذا وذاكَ
وليس من حامٍ ولا واقٍ في العالمينَ سواكَ!

***

إنشودة الساقي..

تجلي وجـــه مـــحـــبـــوبي

وهـــذا كـــل مـــطـــلـــوبـــى

به صـــبـــري هـو الـواهـي

ومـــوتي فـــيـــه مـــرغـــوبـي

« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا ــ لا يباريه أحد ــ للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه "تعطير الأنام في تفسير الأحلام"، الذي قام فيه بتفسير الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان ومكان . من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته «النابلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية، وجواهر النصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي، وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة، وايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معني المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معني قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي منتقص العارف محيي الدين، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والصراط المثنوي في شرح ديباجات المثنوي، وبداية المريد ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنابلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي ينشدها المنشدون في حلقات الذكر ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمةَ العشقِ فز بالبصر والسمع ... قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمعِ
نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمعْ ... من حرقة القلب قد سالت دموعْ الشمعِ

***

قوموا بنا كلنا نخرق حجابَ الطبعِ ونتّبع يا جماعة ما أتى في الشرعِ
حتى نشاهدَ جمال الله يلمع لَمْع ولا وجودَ لنا وهو الوجودُ الجمع

* * *

حبيبنا في بديع الحسن حيرنَا بين الحياة وبين الموتِ خيرنَا
حكم علينا وبالهجران غيرنا وبعد هذا بسوء الحال عيرنَا

* * *

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجيد اللالهية، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلي وجه محبوبي وهذا كُلُّ مطلوبي
فيا نارِ العدا ذوبي بعيداً عنك مشروبي
جمال الأهيفِ الزاهي وحسن الأغيدِ الباهي
به صبري هو الواهي وموتي فيه مرغوبي
رأينا نورَه أشرقْ فكنا برقه الأبرقْ
ولا نجد ولا أبرق سوى الابريقِ والكوبِ

* * *

علينا الخمرُ قد دارتْ بها ألبابُنا حارتْ
وأطيار الهوي طارتْ بترتيب وأسلوب
مليحُ الكون وافانا وزاد الحسنُ إحسانا
وحيا يوسفُ الأنا فقرتْ عينَ يعقوبِ

* * *

ومع ذلك، تبقي رائعة «النابلسى» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقى» معا أعظم ما كتب من شعر لعذوبة ايقاعها ، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معًا كيف صاغ «النابلسي» أنشودته الخالدة:

ساقي يا ساقي ... أسقني من خمرةِ الباقي

واكْشِفْ لي عن قيدِ إطلاقي ... آهِ يا ساقي، آه يا ساقِي

* * *

أستارهُ راحتْ عن ... عيني والزهرة فاحتْ

والسكرةُ بالأسرارِ باحتْ ... آهِ يا ساقي، آهِ يا ساقِي

* * *

اكشف لي عنكَ ... في ذاتي وافتحْ لي دنّك

واجعلني يا حِبّي أنّك ... آهِ يا ساقي، آهِ يا ساقِي

* * *

افتح لي بابَ الحانِ ... واسمعني من طيبِ الألحانِ

وارشفني من كأسِي الملآن ... آهِ ساق، آه يا ساقي

* * *

مَنْ يشربْ يسكرُ ... من خمري لما يتفكرُ

ولامغرور في علمِه أنكرُ ... آهِ يا ياساقي، آه يا ساقي

* * *

لا يعرفُ أمرئٌ ... إلا من يشرب خمري

أحشاؤه تصلي في جمري ... آهِ يا ساقي، آه يا ساقي

ظهرت لكل الكون..

وهو مــا طابَ عــيشٌ لــم تكن فــيـــه واصــلاً

ولــمٍ يصــفْ، لا واللــه، أنَّــي له يـصـــــفــــــو

عـــــــــزمت عــلـى أن أتــركَ الــكـونَ كُــلـهَ

وأقــفــوا ســبــيل الحِب، والمجــبــتي يقــفــوذ

« ابن عطاء الله السكندري »

علم آخر من أعلام الصوفية، وأبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري. يتنسب إلي الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى القاهرة، بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨٦هـ ، بعد أن صحبه اثني عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسي، ثم استمع إليه، وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التسفير والحديث، له اليد الطولي في العلوم الظاهرة ، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي سنة ٧٠٩ هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون النثر الصوفي، وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجة العطائية» ، وتعد من روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا فى شعره الذي لطالما كان منبعا للزاهدين، وقبلة للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن ابتهال إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكلىَ محتاجٌ، وأنت لك الغنى ومثلي من يُخْطى، ومثلك مَنْ يعفُو

وأنت الذي أبدى الوداد تكرمًا ومثلُك من يرعي، ومثلي من يجفُو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً ولم يصفْ، لا والله، أنّي له يصفُو

عزمتُ على أن أترك الكون كُلّه وأقفو سبيلَ الحبِّ، والمُجْتبي يقفُو

* * *

شهودكمو يجلو الحجاب لأنه اذا حقّق التحقيق صار هو الكشفُ

وما أحسنَ الأحبابَ في كُلِّ حالة فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا

وإن الأولي لم يشهدوك بمشهدٍ قلوبُهم عن نيْلِ سر الهوي غلفُ

وأنت الذي أظهرَ ثم ظهرْت في جميع المبادي مثلما شهدَ العَرف

* * *

ظهرْت لكلِّ الكون، فالكون مُظهرٌ وفيه له أيضًا كما جاءتِ الصحُّفُ

فأيّ فؤادٍ عن فؤادك ينثني وأيةُ عينٍ بعد قربك لن تغفو

وأية نفسٍ لم يُملها هواكمو على حُبِكم طرًّا، نفوسُ الوري وقفُ

أيا صاحِ هذا الرّكبُ قد سار مُسرعًا ونحنُ قعودٌ، ما الذي أنت صانعُ

أترْضى بأن تبقي المُخلَّف بعدهم صريع الأماني، والغرام ينازعُ

وهذا لسان الكون ينطق جهرةً بأنّ جميع الكائناتِ قواطعُ

وأنْ لا يرى وجه السبيلِ سوى أمرى رمى بالسري لم تختدعْهُ المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحقُّ قبْلهَا فغيّب مصنوعًا بمن هو صانعُ

بواده أنوارٍ لمن كان ذاهبًا وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فـقم وأنظر الأكـوانَ والنورُ عـمّـهـا   فـفـخـرُ التّـدانى نـحْـوكَ اليـومَ طالعُ

* * *

وكنْ عـبْـدَهُ ألْـقِ القـيـاد لحكمـه   واياك تـدبيـراً فـمـا هو نـافعُ

أتحكـم تدبيـراً وغـيـرُك حـاكمٌ   أأنـت لأحـكـامِ الالـه تَـنـازعُ؟

فـمـحـو ارادات وكُـلُّ مـشـيـئـة   هو الغَـرضُ الأقصى فهل أنـت سامعُ؟

كـذلك سـار الأولـون فـأدركـوا   علـى اثرهـم فَلْيـسَـر مـن هو تـابعٌ

على نـفـسـهِ فليـبْكِ من كـان طالبًا   ومـا لُمـسـتْ ممن يُحبُّ لـوامعُ

على نفْـسـهِ فليْـبكِ من كـان باكيًّا   أيذهـبُ وقتٌ وهو باللهـو ضـائعُ

* * *

بالنور أشرقت..

يـا دولة الـعــــز الـهني الـســــرمــــــدي

عــــزل الـعــــوازل لا يـزال مــــــقـطعـي

فــمــــتى أجــرد ســـيف عــــزمي فـــاتـكا

ويـفــــــــوز «حـلـمـي» رغـم أنـف المدّعِـي

« ابراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية النيازية. التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبدالقادر الجيلاني ـ عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ ـ ١٣٩٠هـ) كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.

وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ، ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه ـ كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي ـ المثل القائل «أطيب الكلام أصدقه». فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادري تذخر بها المكتبة الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.

ومع ذلك، يبقي شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنورأشرقت» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيِّدي أنت الغَياثُ ومَفْزَعي ... ولئنْ بدا للغير فهو تمنُّعي

لكم الولا ودخيلكمْ يشكو الضنا ... والعبد يكرم بالولاء الأرفعِ

وبكم عُرفتُ ولي لديكم حُجَّة ... تسمو علي فلك الوجود الشُّرَّع
والشمسُ تعلمُ أنني معهودكمْ ... ولها علوت وكان إمر تطلُّعي

* * *

وبها فسال الدمعُ مني تمدُّه ... زفراتُ قلبيَ واصطلامُ الهُلَّع
وبها فأرَّجتُ العطورَ يبثُّها ... خير الخلائق بالدعاءِ الأجمعَ
منها علي الحالين كنتُ مناجيًا ... أهل الهوي والساجدين الطُّوَّعِ
وعلي المعارج سيِّدي أرقيتني ... وَخلوتُ بالبيتِ المشيدِ ولادَعي

* * *

أقرأتني قدمًا كريمَ خطابكمْ ... وبه انتشأتُ وكان أمنُ تضعضُعي
بالنور أشرقت الحروفُ وكنت لي ... عينا وقلبا واصطنعتَ مسامعي
وسيقتني كأسًا فهِمْتُ مناجيا ... ونظمتُ أروع ما يكون ومامعي
غذيتمو روحي وإنَّ فطيمكمْ ... حاشاه يسجد أو يقوم لُمْتَعِ
عذلٌ وتبريحٌ وأنَّهُ مُوجَع ... والصبر بعد بهائه لمْ يلمع
مَنْ للنزيل إذا شكا مِنْ غُصَّة ... الا الذي مِنْ بِرِّهِ لمْ يُمنع
ألفَ الدخيلُ مكارمًا من عطفكمْ ... وبها فقد طاب الشرابُ ومَرْتعى

* * *

والغيرُ ان مرَّتْ عليَّ فخاطري ... تأبي الرفيعَ بِبُهْرجٍ وبأَرْقَع
صورٌ وأشكالٌ ومتعةُ ناظر ... والوهمُ يخدع بالسرابِ وبلقعِ
ليتَ الغطاء عَنِ العيون تكشَّفت ... فيبين ما أَلفَتْ نفوسُ الطُّمَّع
زرعٌ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ ... صَمَّاءُ عَنْ لحن الشَّجيِّ وسُجَّع

وعـــوازلُ الأحـــرارِ خلف زيوفـــهـــا كـــالنَّازعـــات الناشطات الهُـــزَّعِ
يادولـةَ العـــزِّ الهـنيِّ السـرمـــدي عـــزلُ الـعـــواذل لا يـزالَ مُـــقَطّعِّي
فـمـتى أجـرِّدُ سـيفَ عـزمىَ فـاتكًا ويـفـــوز حـلمـي رغم أنـف المُدَّعـى
سُـحِرَ الـفـؤاد بـلطفكم وجـمـالكم ولغـيـركمْ قـلبي وسـمـعىَ لـم يَعى
مـــازلتُ أهتفُ والـهـيـام مـلازمى وعطاؤكم مـــهـــمـــا يكن لم أقنعِ
لن أنتـــهـي حـتـى يكـون لوصلـكم قـــبـلي الوفـــاء لِجُلَّسي والتُّـــبَّعِ
فلقـد سـلوتُ ولستُ يـومًـا ساليًـا يـا من بـهـمْ أبـقى ويـفنـي مُـروَعِّي
جـئـتُ الرحـاب ونجـدتي بولائـكم والعُـــرْفُ يقـــضىَ بـالعطـاء الأوسعِ
عـــارٌ اذا مـــا الغـــيـــرُ يُبْـدي مِـنَّةً وعليكم حَـبْسَ الرجـاءُ تمتُّعي

* * *

خُلْفُ الـوعـيـد فـشـأنكم يا سـادتي أمـــا الوعـــود فـــأجـــزَلُ وبأنْـفَعِ
والعـــودُ يُحْـــمَـــدُ بالـلقـاء ووصـله يا مَنْ بهـمْ حـسُـنتْ عـوائدُ مـرجـعي
يـا آل يـثـــربَ يـا كـــرامَ مـاذا جـرى لعـهـودكم وتضـرُّعي
فـــبكمْ إلـي المولي الـعـــزيز توسُّلي وبـكمْ عـلي الأبـواب رَنَّ تـوقُّـعي
بكـمُ التـوسلُ في الشـدائدِ والنـدي منكـم يُسـابقُ كـالسـحـابِ السُّـرَّعِ

* * *

زُفُّـوا الأمـــان إلي الكـئـيب فـــانه خَـضَبَ المشـيبُ نواحـه بـالأيْدَعِ
ثويَ الـرجـــاءُ بكـم وان بَعُـــدَ المديَ فـــأراه يـأتي بـالنوال الأمـتـعِ
منًّـا على حــرم الحـبـيب تحـيـةٌ تزكـو كـمـا يزكـو السـجـودُ لرُكَّعِ
وَمـسَلِّمـا برقـيـقـةٍ تحـدو بـهـا زمـرُ الملائكِ والطيـورِ السـجَّعِ

* * *

حسبي علوا..

لـكــن تـنــازع شـــــــــــوقـي تــارة أدبـي

فـــــأطلـب الـوصل لمـا يـضــــعـف الأدب

ولـسـت أبــرح فـي الحـــــــالـين ذا قـلـق

نـام وشـــــــوق لـه فـي اضـلـعـي لـهـب

« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ إبن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين إبن الخيمي في اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر، حتى توفى سنة ٦٨٥ هـ

وقد سار إبن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن إبن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَوا عنا ومالوا إلي الغدرِ ... ومالزموا أخلاقَ أهلِ الهوي العُذرى
وبعد حلاوات التواصلِ والهوى ... جنوا مُرَّ طعم الهجرِ مِنْ عَلْقَمِ الصبرِ
اذا ما رجعتم عَنْ محبتكم لنا ... مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري
وإن كنتمُ في الجهر عنا صددتمُ ... ففي سرِّنا عنكم نصدٌّ وفي الجهرِ
سكنتم فؤادي مرةً ورحلتمُ ... فأصبحَ منكم خالياً خالي السرِّ
وقال لي العذالُ هل أنت راجعٌ؟ ... إذا رجعوا عن غدرهم قلتُ لا أدري!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهي، ويري الباحثون أن شعره الصوفي يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» إبن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يا مطلبًا ليس لي في غير أربُ ... إليك آل التقصيٌّ وإنتهى الطلبُ
ومــا أرانىَ أهلاً أن تواصلني ... حسبى علواً بأني فيك مكتئبُ.

* * *

لكن ينازعُ شوقي تارةً أدبي ... فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولست أبرحُ في الحالين ذا قلق ... نامٍ وشوقٍ له في اضلعي لهب

* * *

ومدمعٍ كلما كفكفت صَيِّبَهُ ... صوتًا لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدّعي في الهوى دمعي مقاسمتي ... وجدي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا ... يزالُ في ليلِه للنجمِ يرتقبُ

* * *

يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا ... عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ
بالله إن جزتَ كثبانًا بذي سَلَمٍ ... قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ
ليقضي الخدُّ من أجراعها وطراً ... في تُربها ويؤدي بعضَ ما يجبُ

* * *

وملْ إلي البان من شرقِّي كاظمة ... فلي إلي البان من شرقيِّها أربُ
وكلما لاح معنى مِنْ جمالهمُ ... لباه شوقٌ إلي معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهمْ طربٌ ... ومن أليم إشتياقي نحوهم حَرَبُ

* * *

لله قومٌ بجرعاء الحي غُيُبُ ... جنوا عليَّ ولما أن جنوا عتبوا
يا ربِّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ ... وانهم غصبوا عيشي فلِمَّ غضبوا؟
هم العُربُ بنجد مُذْ عرفتهمُ ... لم يبقْ لي معهم مالٌ ولا نَشَبُ
شاكون للحرب لَكن من قدودهمُ ... وفاتراتُ اللحاظ السمرُ والقضبُ
فما ألموا بحيٍّ أو ألمَّ بهمْ ... إلا وغادرو على الأبيات وإنتهبوا
عاهَدْتُ في زمن البطحاء عهدي هوي ... إليهمُ وتمادتْ بيننا حقبُ
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا ... لكن لغيرىَ ذاك العهدَ قد نسبوا

* * *

من منصفي من لطيفٍ منهمُ غَنجٍ ... لدنِ القوام لاسرائيل ينتسبُ

مُـــبـــدِّل القـــول ظلـمًّــا لا يفـي بموا   عـيـد الوصــال ومنـه الذنبُ والغـضبُ
تُبـينُ لثـــغــتُــهُ بالـراء نســبَــتــه   والمـينُ منه بزور الـوعــــدِ والكـذبُ

* * *

مـــوَحـدٌ فـــيـــري كلَّ الوجـــود له   مـلكًـا ويـبطل مــــا يأتي به الـنسبُ
فــعن عـــجــائبــه حــدِّثْ ولا حــرجُ   مــا ينتـهي فـي المليحِ المطلقِ العـجبُ
بـدرٌ ولـكـن هـلالاً لاح اذ هـــو بـالـــ   وردىِّ من شـــفق الخـــدَّين منتــقبُ

* * *

في كـأس مـبسـمــه من حلو ريقـتـه   خـــمــــرٌ ودُرُّ ثناياه لهـــا حَـــبَبُ
فلـفظـة أبدًا سـكران يُســـــمــــعنـا   من مـغـرب اللحـنِ مـا يُنسى به الأدبُ
تجنى لـواحظـه فــــينـا ومنـطقـــــه   جنـاية تجـتـني من مـــرهـا الضـــرَبُ

* * *

حلو الأحــاديث والألحــاظ سـاحـرها   تُـلـقــى إذا نـطـقَ الألـواحُ والـكـتـبُ
لم تـبقِ ألـفــــاظه مــــعنىً يرقُ لـنا   لقـد شـكتْ ظلمـه الأشـعـارِ والخطبُ
فـــداؤه مـا جـري في الدمع من مـــهجٍ   ومـا جـرى في سـبيل الحبِّ مـحـتسَبُ

* * *

ويح المتــيَّم شـــامَ البـــرقَ من إضم   فــهـــزَّه كـــاهتـــزاز البـارق الحَـــربُ
وأسكن الـبـــرقَ من وجـــد ومـن كلف   في قلـبـه فــهـوَ في أحـشـائـه لهبُ
وكـلـمــــا لاح مـنه بـارقٌ بعــــثـتْ   مـــاءَ المدامع من أجـــفـــانه سُـــحبُ
ومــا أعـادت نُـسيـمــاتُ الغـــوير له   أخـــبـــار ذي الأثـل إلا هزَّه الـطربُ
واهاً له أعـــرضَ الأحـبـــابُ عنه ومـــا   أجـدتْ رســائله الحُسنى ولا القـربُ

* * *

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم انجذاباً لأسمع من جنابكم خطابا

فكم ليلٍ بقربكم تقضى إلي سحر سجوداً واقترابا

وكم من نشوةٍ وردتْ نهاراً فلا خطأ وعيتُ ولا صوابا

« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبدالقادر بن محمد (٩٧١ ـ ١٠٤٠هـ) الذى اشتهر بابن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعلوا ذكرهم، وينتشر صيتهم . ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قرونا من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبى الفيض فى مصر، زاد انتاجه الصوفى المتيمز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة في التصوف أربعين كتابا أشهرها «نهج السعادة» ، و«الفتوحات المدنية»، ونفحة البان» ، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة فى أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى» ، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبى الفيض تدل على رسوخ قدمه فى التصوف والمعارف الالهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضى بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفى الروحانى، والرموز الصوفية المعروفة، التى تتجسد فى شعر الصوفية.

وها هى ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التى تروى جانبا من تصوفه، وما تعلقت به نفسه فى الحب الإلهى:

سقانى الحبُّ من خمرِ العيانِ ... فتهتُ بسكرتى بين الدنانِ

وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى ... وخاطبتُ الحبيبَ بلا لسانِ

* * *

شربتُ لحبه خمراً سقانى ... كصحبى فانتشى منها جنانى

شَطحْتُ بشـــربهـــا بين الندامى   ورشـــدى ضـــاعَ مما قــــد دهانِى

* * *

فـــهـــام أولو النهى من بعــد سكرى   وغـــابوا فـى الشـــهـــود عن المكانِ

مُـــريِدى! لا تخفْ واشطحْ بســـرى   فـــقـــد أذن الحـــبـــيبُ بما حـــبـــانى

* * *

فـــأكـــرمنى وتوَّجـنى بتـــاجٍ   يـقـــوم بســـره قطب الزمـــانِ

وأمـــرنى على الأقطاب حـــتـــى   سَـــرَى أمـــدى بهم فى كـل شـــانِ

وأطلعنى على ســـر خـــفـى   وقـــال الســـتـــر من ســـر المعـــانِى

* * *

فهرس



عربية للطباعة والنشر

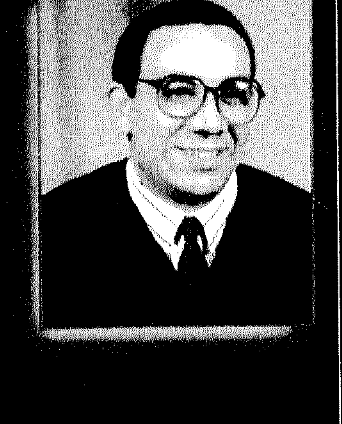
١٠٤٧ شارع السلام ـــ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحلى قصائد الصوفية



الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله ، وفيه يصف الحب ولذته ، وما يجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال ، ومجاهدة مستمرة للنفس ، وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ، وسمو روحى .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين : شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد . . وآخر يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً انسانيًا خالدًا آملين من المولي عز وجل ان يحظي برضاك ، واستحسانك .

مجدى كامل

